اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالْوَاحِدُ

لِدَاوُدَ. مَزْمُورٌ

1 رَحْمَةً وَحُكْماً أُغَنِّي. لَكَ يَا رَبُّ أُرَنِّمُ. 2أَتَعَقَّلُ فِي طَرِيقٍ كَامِلٍ. مَتَى تَأْتِي إِلَيَّ؟ أَسْلُكُ فِي كَمَالِ قَلْبِي فِي
وَسَطِ بَيْتِي. 3لاَ أَضَعُ قُدَّامَ عَيْنَيَّ أَمْراً رَدِيئاً. عَمَلَ الزَّيَغَانِ أَبْغَضْتُ. لاَ يَلْصَقُ بِي. 4قَلْبٌ مُعَوَّجٌ يَبْعُدُ عَنِّي. الشِّرِّيرُ
لاَ أَعْرِفُهُ. 5الَّذِي يَغْتَابُ صَاحِبَهُ سِرّاً هَذَا أَقْطَعُهُ. مُسْتَكْبِرُ الْعَيْنِ وَمُنْتَفِخُ الْقَلْبِ لاَ أَحْتَمِلُهُ. 6عَيْنَايَ عَلَى أُمَنَاءِ
الأَرْضِ لِكَيْ أُجْلِسَهُمْ مَعِي. السَّالِكُ طَرِيقاً كَامِلاً هُوَ يَخْدِمُنِي. 7لاَ يَسْكُنُ وَسَطَ بَيْتِي عَامِلُ غِشٍّ. الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَذِبِ لاَ
يَثْبُتُ أَمَامَ عَيْنَيَّ. 8بَاكِراً أُبِيدُ جَمِيعَ أَشْرَارِ الأَرْضِ، لأَقْطَعَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّبِّ كُلَّ فَاعِلِي الإِثْمِ.

الملك التقي العادل

في هذا المزمور يعلن داود نيَّته المقدسة أن يحيا حياة النقاوة، وأن يرفض كل عوَجٍ وزيغان في مملكته. وهو يسأل إلهه: «متى تأتي إليَّ؟» لأنه يريد أن يحيا في محضر الله دائماً، فيملأ حضور الله قلبه، ويسود الرب على بيته، ويقوده ويرشده، ويحكم المملكة من خلاله. عاش داود مع الله، وسبَّح له، وكان سلوكه في الحياة اليومية متوافقاً مع ترتيله وشعاراته، لأنه طبَّق ما رتَّله على حياته الشخصية كمتعبِّدٍ مخلصٍ لله. وكملكٍ أوكل الله إليه مسؤولية حُكم شعبه ورعايته، كان يريد أن يكون الحاكم العادل لمملكة فاضلة.

في هذا المزمور ينقلنا داود لنتأمل واقع حياته الشخصية كمؤمن ورب بيت، وواقع حياته العملية كملك وحاكم، ويرينا تطبيق ما يقوله فم العابد على حياته العملية كل يوم.

شرح داود أخلاقياته في مزموري 15، 24، فتساءل: «يا رب، من ينزل في مسكنك؟ من يسكن في جبل قدسك؟» وأجاب: «السالك بالكمال، والعامل الحق، والمتكلم بالصدق في قلبه. الذي لا يشي بلسانه، ولا يصنع شراً بصاحبه، ولا يحمل تعييراً على قريبه» (مز 15: 1-3) وتساءل: «من يصعد إلى جبل الرب، ومن يقوم في موضع قُدسه؟» وأجاب: «الطاهر اليدين، والنقي القلب، الذي لم يحمل نفسه إلى الباطل، ولا حلف كذباً» (مز 24: 3، 4). وكانت كلماته الأخيرة: «وحي داود بن يسى، وحي الرجل القائم في العُلا.. مرنِّم إسرائيل الحلو: روح الرب تكلم بي، وكلمته على لساني.. إذا تسلط على الناس بارٌ يتسلط بخوف الله، وكنور الصباح إذا أشرقت الشمس. كعُشبٍ من الأرض في صباحٍ صحوٍ مضيءٍ بعد المطر» (2صم 23: 1-4). هذا هو داود التقي، الملك العادل، الذي شهد الله عنه بالقول: «وجدتُ داود بن يسى رجلاً حسب قلبي، الذي سيصنع كل مشيئتي» (أع 13: 22).

وقد أطلق المفسرون على مزمور 101 عدَّة تسميات، منها «تصوير داود للملوك» و«مزمور الأمراء». وقد حفظه عن ظهر قلب كثير من الملوك الأتقياء. ويُروى عن الملك «إرنست التقي» أنه أرسل نصَّ هذا المزمور لأحد وزرائه المرتَشين، فخرجت مثلاً أن يُقال عن كل مسؤول مرتشٍ: «سرعان ما سيصله المزمور المئة والواحد ليقرأه».

ولا نعلم بالضبط ما هي المناسبة التي كُتب فيها هذا المزمور، ولكن المفسرين اقترحوا ثلاث مناسبات في حياة داود يمكن أن تكون أيٌّ منها مناسبة لكتابته:

(1) ربما كتبه بعد موت الملك شاول (2صم 1: 1-10). وكان داود وقتها في الثلاثين من العمر، وجاءه قادة سبط يهوذا يطلبون منه أن يتولى أمور حكم سبطهم. وقبِل داود طلبهم وملَك على سبط يهوذا سبع سنوات ونصف السنة، وكانت عاصمته مدينة الخليل التي كانت معروفة وقتها باسم «حبرون». وبهذا تغيَّر حال داود تماماً فصار ملكاً بعد أيام قاسية قضاها هارباً من الملك شاول الذي كان يطارده من كهف إلى كهف. وشعر بالامتنان للرب الذي بدَّل حاله، فأعلن أنه سيكون وفياً لله، وحاكماً عادلاً لشعبه.

(2) ربما كتبه بعد موت آخِر مقاوميه من عائلة شاول، ومجيء جميع الأسباط إليه ليتولى حكمهم، وقالوا له: «عظمك ولحمك نحن.. أنت تكون رئيساً على (كل بني) إسرائيل» (2صم 5). فتولى المُلك في أورشليم مدة ثلاث وثلاثين سنة. وفي شكره لله رنَّم هذا المزمور مصلياً أن يسلك بالكمال في مخافة الله، وأن يكون حكمه على شعب الرب حكماً عادلاً.

(3) ربما كتبه بمناسبة نقل تابوت عهد الرب إلى مدينة أورشليم، العاصمة الجديدة، كعلامة حضور الرب وسط شعبه (2صم 6). وفي أول الأمر تمَّ نقل التابوت بطريقة مخالفة لشريعة موسى، فبدل أن يحمله الكهنة على أكتافهم حملوه على عجَلة جديدة، ولما تعثَّرت الثيران مَدَّ شخصٌ اسمه «عُزة» يده ليسند التابوت، فأماته الرب في الحال. وخاف داود من الرب، لكنه سرعان ما أدرك سبب ميتة

عُزة، وعرف الطريقة السليمة التي يجب أن يحملوا بها التابوت فأطاعها، ونقل بها التابوت إلى الخيمة التي نصبها له. لذلك تساءل في هذا المزمور: «متى تأتي إليَّ؟» (آية 2). وكأنه يقول: لقد جهَّزتُ نفسي وعائلتي ومدينتي بالطريقة التي ترضاها يا ربي، وصارت مدينتي مدينتك. فأريدها أن تكون دائماً مدينة إقامة تابوت عهدك مع شعبك، رمزاً لحضورك وسطهم. وكأن داود يدرك معنى قول المسيح: «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني. والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأُظهِر له ذاتي.. إن أحبَّني أحدٌ يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً» (يو 14: 21، 23).

عندما يكرمك الرب ويباركك ويعطيك نعمة خاصة وينقلك إلى حالٍ أفضل، رنِّم له مع داود هذا المزمور، وقد نويتَ أن تحيا حياةً نقية تقية، عامرة بمحبتك لعائلتك وللآخرين.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – داود الإنسان المتعبِّد (آيات 1–4)

ثانياً – داود الملك العادل (آيات 5–8)

أولاً - داود الإنسان المتعبِّد

(آيات 1-4)

1 - المتعبِّد يشكر: «رحمةً وحكماً أُغنّي. لك يا رب أُرنِّم» (آية 1). يتغنّى داود كل يوم للرب الرحيم والحاكم العادل ويرتل له، كما ترنَّم أيثان الأزراحي: «العدل والحقُّ قاعدة كرسيِّك. الرحمة والأمانة تتقدَّمان أمام وجهك» (مز 89: 14). تذكَّر داود كم قابل من محاربات وضيقات، وكيف اختبر العناية الإلهية التي مدَّت له يد العون والإنقاذ من كل شدَّة، وأدرك أن على كل حاكم أن يمارس الرحمة والعدالة في أحكامه «فيُثبَّت الكرسي بالرحمة، ويجلس (الحاكم) عليه بالأمانة.. ويطلب الحق ويبادر بالعدل» (إش 16: 5). ويدرك أيضاً أن كل مؤمن يريد أن يسلك بالكمال يجب أن تفيض حياته تسبيحاً لله الصالح، كثير الرحمة، عظيم الغفران، كما يشكره لأجل عدالته الظاهرة في أحكامه، ويكون سلوكه متوافقاً مع إيمانه، فيعامل الآخرين بالرحمة والعدل. «قد أخبرك (الرب) أيها الإنسان ما هو صالح، وماذا يطلبه منك الرب: أن تصنع الحق وتحب الرحمة، وتسلك متواضعاً مع إلهك» (مي 6: 8).

فلنشترك مع داود في شكر الرب والترنُّم له على عدالته، وعلى رحمته. في حياتنا نجاح وفشل، وفيها تحقيق آمالٍ وإحباطات، وفيها حلوٌ ومر، وفيها أيام صحة وأيام مرض، وأيام مكسب وأيام خسارة. فدعونا نشكر الرب على مراحمه علينا في وسط كل هذا، ونقول مع داود: «أنا دعوتُك لأنك تستجيب لي يا الله. أمِل أذنيْكَ إليَّ. اسمع كلامي. ميِّز مراحمك يا مخلِّص المتَّكلين عليك بيمينك من المقاومين. احفظني مثل حدَقة العين» (مز 17: 6–8). ودعونا نسبح الله ونشكره على أحكامه العادلة معنا، سواء كانت بالمكافأة أو بالتأديب، فقد قال الرسول بولس: «لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية، وقد نسيتُم الوعظ الذي يخاطبكم كبنين: يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تَخُرْ إذا وبَّخك، لأن الذي يحبه الرب يؤدِّبه، ويجلد كل ابن يقبله.. إن كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين، فأيُّ ابن لا يؤدبه أبوه؟» (عب 12: 4–6).

2 - المتعبِّد يسعى للكمال: (آية 2).

(أ) كمال النيَّة: «أتعقَّل في طريق كامل» (آية 2أ). في حكمة وتعقُّل يعلن داود أنه ينوي أن يسلك بالكمال الأخلاقي، فإن «رأس الحكمة مخافة الله» (مز 111: 10) و«طريق الصدِّيق استقامة» (إش 26: 7). وقد قال داود: «جميع أحكامه أمامي، وفرائضه لم أُبعدها عن نفسي» (مز 18: 22). وبعده عندما قال الله لسليمان: «اسأل ماذا أعطيك» أجاب: «أعطِ عبدك قلباً فهيماً لأحكم على شعبك، وأميِّز بين الخير والشر» فقال له: «أعطيتك قلباً حكيماً ومميِّزاً» (1مل 3: 5–15). والإنسان الحكيم العاقل هو الذي يسلك الطريق الذي يرضاه الله، لأنه الطريق الكامل. وكمثال لهذا نقول إنه ما أكثر ما يريد الإنسان أن ينتقم لنفسه، أو أن يأخذ حقوقه بيده، لأنه يعتقد أن طاعته للرب ستضيِّع حقوقه، فلا يطيع قول الله «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء.. لأنه مكتوب: لي النقمة أنا أجازي يقول الرب» (رو 12: 19). ولكن كمال الحصول على حقوقنا، وكمال انتصارنا هو في طاعتنا لأوامر الرب بعدم الانتقام، وتسليم الأمور للرب الذي يجازي بعدالة، ويعطي كل صاحب حقٍّ حقَّه. وما أجمل النصيحة: «فانظروا كيف تسلكون بالتدقيق، لا كجهلاء بل كحكماء» (أف 5: 15).

(ب) كمال الشوق: «متى تأتي إليَّ؟» (آية 2ب). كانت حياة داود زاخرة بالذكريات الحلوة مع الرب، ولا بد أنه تذكَّر كيف خاف من مجيء تابوت عهد الرب إلى مدينته، وقال: «كيف يأتي إليَّ تابوت الرب؟» (2صم 6: 9). وها هو يتخلَّص من الخوف ويمتلئ بالثقة والشوق إلى حضور الرب، فيقول: «متى تأتي إليَّ؟».. إنه يعبِّر عن مشاعر بني قورح في القول: «عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي. متى أجيء وأتراءى قدام الله؟» (مز 42: 2) فأعلن تشوُّقه إلى قُربٍ أقرب لله ليقدر أن يتعقَّل في الطريق الكامل الذي عزم بكل قلبه أن يسير فيه، فلا يخطئ إلى نفسه، ولا يخطئ في إصدار أحكامه، لأن الرب سيعطيه الحكمة والقداسة. وفي طِلبته هذه يسأل الله أن يحقِّق وعده لشعبه: «في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذِكْراً، آتي إليك وأباركك» (خر 20: 24).

دعونا نعلن شوقنا إلى الحياة في محضر الرب الدائم، ليكون ملكاً على الحياة. قُل له: متى تأتي إليَّ لتجعل سلوكي حسب إرادتك؟ متى تأتي إلى بيتي معبوداً، فأقول مع عائلتي: «أنا وبيتي نعبد الرب» (يش 24: 15)؟ متى تكون أنت صاحب الكلمة العليا في كل ما أفعل؟ متى تقود سفينة حياتي إلى حيث تريد وحيث تشاء؟ فهذا هو النعيم كله! وما أصدق قول القديس أغسطينوس: «اللهم، لقد خلقتنا لذاتك، فلن تجد نفوسنا راحةً إلا إذا استراحت فيك».

(ج) كمال الحياة العائلية: «أسلك في كمال قلبي في وسط بيتي» (آية 2ج). القصور عادةً مكان فساد ودسائس وشهوات. ولكن داود يعلن أن قصره سيكون مكان سكنى الرب الذي سيجيء إليه، وكأنه يردد الشعار: «الرب هو سيد هذا البيت، الضيف غير المنظور على كل مائدة، والسامع الصامت لكل محادثة». لم يكن داود مهتماً فقط بأن يكون سلوكه كاملاً أمام الناس كملك، بل اهتم أن يسلك بالكمال أمام الله في بيته، فقيل عنه إنه بعد نقل التابوت «بارك الشعب باسم رب الجنود.. ثم ذهب كل الشعب، كل واحد إلى بيته، ورجع داود ليبارك بيته» (2صم 6: 18-20). إنه يسعى للكمال، فقال: «أكون كاملاً معه وأتحفَّظ من إثمي» (مز 18: 23)، وقال الحكيم: «الصدِّيق يسلك بكماله. طوبى لبنيه من بعده» (أم 20: 7). ويعلن داود هنا أنه سيسلك في كمال قلبه وسط بنيه، فيكون لهم القدوة الصالحة والمثل الطيب.. ولا بد أن داود كان يذكر ما كان أيوب يفعله مع أبنائه «وكان بنوه يذهبون ويعملون وليمة في بيت كل واحدٍ منهم في يومه.. وكان لما دارت أيام الوليمة أن أيوب أرسل فقدَّسهم، وبكَّر في الغد وأصعد محرقات على عددهم كلهم، لأن أيوب قال: ربما أخطأ بنيَّ وجدَّفوا على الله في قلوبهم. هكذا كان أيوب يفعل كل الأيام» (أي 1: 4، 5).

إن أصعب مكان نُظهِر فيه إيماننا هو البيت، فما أكثر ما ندَّخر الكلام اللطيف لمعاملاتنا الخارجية، ولا نُبقي لأهل البيت إلا الكلام الخشن! مع أن المكان الأمثل للتعبير عن مشاعر حبنا هو البيت، حيث شريك الحياة والأبناء. والبيت هو أفضل مكان تختبر فيه إيمان الشخص مع عائلته الصغيرة والكبيرة. ويفتش الرب دوماً عن البيت التقي ليجد راحته فيه، كما بحث المسيح عن بيتٍ يستريح فيه يوم الأربعاء من أسبوع الآلام، فاختار بيت مريم ومرثا ولعازر (مت 26: 6-13). ووجد مؤمنو مدينة كولوسي راحتهم في بيت فليمون، فكتب بولس له وللكنيسة يقول: «بولس أسير يسوع المسيح، وتيموثاوس الأخ: إلى فليمون المحبوب والعامل معنا، وإلى أبفيَّة المحبوبة (زوجة فليمون) وأرخِبُّس المتجنِّد معنا (ابن فليمون)، وإلى الكنيسة التي في بيتك، نعمةٌ لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح» (فل 1-3). فهل يجد المسيح بيتك واحة راحة، وهل يستريح المؤمنون في بيتك؟

3- المتعبِّد يكره الشر: (آيتا 3، 4). في هاتين الآيتين يعلن داود ولاءه الكامل لله، وسعيه إلى حياة الطاعة له، فيبتعد عن كل شر، كارهاً له.

(أ) لا يقلِّد الأشرار: «لا أضع قدام عينيَّ أمراً رديئاً» (آية 3أ). وهذا يعني أنه عزم ألا يقلِّد أي شيء سيء يراه في الأشرار، مهما كانوا مشهورين أو ناجحين، لأن ما تراه العينان وتنجذبان إليه يدخل القلب، فإن: «سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّراً.. وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً» (مت 6: 22، 23). لقد وضع أبوانا الأولان قدام عينيهما الشجرة المنهيَّ عنها، فوجداها جيدة للأكل، وبهِجة للعيون، وشهيَّة للنظر، فعصيا الله (تك 3: 6). وقد تحذَّر داود من فعلهما، وتعلَّم وجوب الطاعة.

وهناك معنى آخر لقول داود إنه لا يضع أمراً رديئاً أمام عينيه، هو أنه لن يضع نصب عينيه، ولن يهدف إلى عمل رديء، لأن كل نيَّته متَّجهة إلى السلوك الفاضل الكامل، لأنه «إن راعيتُ إثماً في قلبي لا يستمع لي الرب» (مز 66: 18)، وشعاره: «أما أنا فالاقتراب إلى الله حسن لي. جعلت بالسيد الرب ملجإي، لأخبر بكل صنائعك» (مز 73: 28).

(ب) ينفض الزيغان عنه: «عملَ الزيغان أبغضتُ. لا يلصَقُ بي» (آية 3ب). أوصى الله شعبه: «لا يلتصِق بيدك شيء من المحرَّم.. احترزِ من أن يكون مع قلبك كلامٌ لئيمٌ» (تث 13: 17 و15: 9). وقد عمل داود بهذه الوصية، فقرر أن ينفض عنه كل جحود وزيغان.

(ج) لا يصادق الأشرار: «قلبٌ معوَّجٌ يَبعُد عني. الشرير لا أعرفه» (آية 4). علم داود أن «كراهة الرب ملتوو القلب، ورضاه مستقيمو القلوب» (أم 11: 20) فقرر أن لا يكون بينه وبين الشرير أي نوع من العلاقة. وعلينا أن نحتذي مثال داود «فإن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة» (1كو 15: 33). ويجب أن نطيع الوصية الرسولية: «لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين، لأنه أية خلطةٍ للبر والإثم؟ وأية شركة للنور مع الظلمة؟ وأي اتفاق للمسيح مع بليعال؟ وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن؟» (2كو 6: 14، 15).

ثانياً - داود الملك العادل

(آيات 5-8)

1- الملك العادل يرفض المُغتاب: «الذي يغتاب صاحبه سراً هذا أقطعه»» (آية 5أ). المغتاب هو الذي يمسك سيرة الآخرين بالكذب، ويجرح الناس بكلامه من وراء ظهورهم، فلا تكون لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم. ولا بد للملك من مساعدين ومستشارين يقدمون له تقارير عن العباد والبلاد، يكونون صادقين أمناء، لا يغتابون أحداً ولا يظلمون أحداً، بل يقدمون للملك تصويراً صادقاً للناس وللأمور. فإذا كان المحيطون بالملك أمناء جاءت تقاريرهم أمينة، وبالتالي جاءت قرارات الملك عادلة. أما إن كان المحيطون به أشراراً فإنهم سيقدمون له تقارير مزوَّرة تتبعها قرارات ظالمة وخاطئة. ولهذا لم يكن الملك داود يسمح بوجود الذين يغتابون الناس سراً، بل كان يستبعدهم ويقطعهم من حاشيته، فإن «الحاكم المصغي إلى كلام كذب كل خدّامه أشرار» (أم 29: 12).

2- الملك العادل يرفض المتكبِّر: «مستكبر العين منتفخ القلب لا أحتمله» (آية 5ب). قال داود للرب: «أنت تخلِّص الشعب البائس، والأعين المرتفعة تضعها» (مز 18: 27). وقد تمثَّل داود بإلهه، فكان لا يحتمل المتكبرين، الذين يشبهون هامان الذي عندما سأله الملك أحشويروش: «ماذا يُعمَل لرجلٍ يُسرُّ الملك بأن يكرمه؟» قال في نفسه: «من يُسرُّ الملك بأن يكرمه أكثر منّي؟». فاقترح أن يُلبِس الملك هذا الرجل الملابس السلطانية، وأن يُركَبَ على فرس الملك، ويُتوَّجَ بتاج الملك، ويُطلبَ من أحد رؤساء الملك الأشراف أن يدور به في ساحة المدينة وينادي «هكذا يُصنَع للرجل الذي يُسر الملك بأن يكرمه». فأمره الملك أن يفعل هذا بمُردخاي بوّاب القصر (أس 6: 6-11)! حقاً «ذبائح الله هي روحٌ منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره» (مز 51: 17). إذاً «تسربلوا بالتواضع لأن الله يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمةً. فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه» (1بط 5: 5، 6).

3 - الملك العادل يستخدم الأمين الكامل: «عيناي على أمناء الأرض لكي أجلسهم معي. السالك طريقاً كاملاً هو يخدمني» (آية 6). كان داود أميناً يتعقَّل في طريق كامل، فأحب الأمناء الكاملين، وكان يبحث عنهم دائماً ليكونوا أفراد حاشيته ومستشاريه والمقرَّبين منه، والعاملين معه، وخدمَه.

4- الملك العادل يطرد الكذابين: «لا يسكن في وسط بيتي عامل غش. المتكلم بالكذب لا يثبت أمام عينيَّ» (آية 7). عانى داود معاناة شديدة من الغشاشين الكاذبين الذين كانوا يشون به كذباً للملك شاول، فكان يطارده طالباً قتله. ولما وقع شاول في يد داود مرة قال داود لشاول: «لماذا تسمع كلام الناس القائلين: هوذا داود يطلب أذيَّتك؟» (1صم 24: 9). ولما جعل الله داود ملكاً لم يكن يريد لأحدٍ أن يتعذَّب كما تعذب هو، فطرد من بيته الغشاشين الكذبة، وهو القائل: «لتبكمْ شفاه الكذب المتكلِّمة على الصدّيق بوقاحة، بكبرياء واستهانةٍ» (مز 31: 18). لا يستطيع السالك بالكمال أن يتعايش مع عامل الغش، ولكنه يقول: «القديسون الذين في الأرض والأفاضل، كل مسرَّتي بهم» (مز 16: 3).

5 - الملك العادل يطهِّر عاصمة مملكته: «باكراً أُبيد جميع أشرار الأرض، لأقطع من مدينة الرب كل فاعلي الإثم» (آية 8). لم يكتفِ داود بتطهير قصره من الكذابين الأشرار، بل أراد أن يطهر العاصمة منهم يومياً «لأنه خادم الله للصلاح.. لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله، منتقم للغضب من الذي يفعل الشر» (رو 13: 4). دعا داود عاصمة مملكته «مدينة الله» فأراد أن يطهرها من فاعلي الإثم لتكون المدينة الفاضلة، وعزم أنه «باكراً» في كل يوم كان يستبعد منها الأشرار والظالمين، الذين يسيئون إلى غيرهم. قال الرب: «يا

بيت داود، هكذا قال الرب: اقضوا في الصباح عدلاً، وانقذوا المغصوب من يد الظالم لئلا يخرج كنارٍ غضبي، فيُحرقَ وليس مَن يُطفــئ، مِن أجل شر أعمالكم» (إر 21: 12).

فلنطلب من الرب أن يقرِّبنا إليه أكثر، لأن القريب منه هو الأمين في عمله وفي بيته وفي خدمته، ويستحق أن يقول الرب له: «نِعمّــا أيها العبد الصالح والأمين. كنت أميناً في القليل (الذي هو حياتك الشخصية والعائلية، مع شريك الحياة والأبناء) فأقيمك على الكثير (إلــى عمل أكبر وأفضل في الخدمة في وسط المجتمع)» (مت 25: 23). ولنسلك أمام الرب بكمال وأمانة، لأننا ملــح الأرض ونــور العــالم، فيضيءَ نورُنا أمام الناس ويمجدوا أبانا الذي في السماوات (مت 5: 13-16).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالثَّانِي

صَلاَةٌ لِمِسْكِينٍ إِذَا أَعْيَا وَسَكَبَ شَكْوَاهُ قُدَّامَ اللهِ

1 يَا رَبُّ، اسْتَمِعْ صَلاَتِي، وَلْيَدْخُلْ إِلَيْكَ صُرَاخِي. 2لاَ تَحْجُبْ وَجْهَكَ عَنِّي فِي يَوْمِ ضِيقِي. أَمِلْ إِلَيَّ أُذُنَكَ
فِي يَوْمِ أَدْعُوكَ. اسْتَجِبْ لِي سَرِيعاً، 3لأَنَّ أَيَّامِي قَدْ فَنِيَتْ فِي دُخَانٍ، وَعِظَامِي مِثْلُ وَقِيدٍ قَدْ يَبِسَتْ. 4مَلْفُوحٌ كَالْعُشْبِ
وَيَابِسٌ قَلْبِي، حَتَّى سَهَوْتُ عَنْ أَكْلِ خُبْزِي. 5مِنْ صَوْتِ تَنَهُّدِي لَصِقَ عَظْمِي بِلَحْمِي. 6أَشْبَهْتُ قُوقَ الْبَرِّيَّةِ. صِرْتُ
مِثْلَ بُومَةِ الْخِرَبِ. 7سَهِدْتُ وَصِرْتُ كَعُصْفُورٍ مُنْفَرِدٍ عَلَى السَّطْحِ. 8الْيَوْمَ كُلَّهُ عَيَّرَنِي أَعْدَائِي. الْحَنِقُونَ عَلَيَّ حَلَفُوا
عَلَيَّ. 9إِنِّي قَدْ أَكَلْتُ الرَّمَادَ مِثْلَ الْخُبْزِ، وَمَزَجْتُ شَرَابِي بِدُمُوعٍ، 10بِسَبَبِ غَضَبِكَ وَسَخَطِكَ، لأَنَّكَ حَمَلْتَنِي
وَطَرَحْتَنِي. 11أَيَّامِي كَظِلٍّ مَائِلٍ، وَأَنَا مِثْلُ الْعُشْبِ يَبِسْتُ.

12أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَإِلَى الدَّهْرِ جَالِسٌ، وَذِكْرُكَ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. 13أَنْتَ تَقُومُ وَتَرْحَمُ صِهْيَوْنَ، لأَنَّهُ وَقْتُ
الرَّأْفَةِ، لأَنَّهُ جَاءَ الْمِيعَادُ. 14لأَنَّ عَبِيدَكَ قَدْ سُرُّوا بِحِجَارَتِهَا، وَحَنُّوا إِلَى تُرَابِهَا، 15فَتَخْشَى الأُمَمُ اسْمَ الرَّبِّ، وَكُلُّ
مُلُوكِ الأَرْضِ مَجْدَكَ. 16إِذَا بَنَى الرَّبُّ صِهْيَوْنَ يُرَى بِمَجْدِهِ. 17الْتَفَتَ إِلَى صَلاَةِ الْمُضْطَرِّ، وَلَمْ يَرْذُلْ دُعَاءَهُمْ.
18يُكْتَبُ هذَا لِلدَّوْرِ الآخِرِ، وَشَعْبٌ سَوْفَ يُخْلَقُ يُسَبِّحُ الرَّبَّ. 19لأَنَّهُ أَشْرَفَ مِنْ عُلْوِ قُدْسِهِ. الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الأَرْضِ نَظَرَ 20لِيَسْمَعَ أَنِينَ الأَسِيرِ، لِيُطْلِقَ بَنِي الْمَوْتِ، 21لِكَيْ يُحَدَّثَ فِي صِهْيَوْنَ بِاسْمِ الرَّبِّ، وَبِتَسْبِيحِهِ فِي
أُورُشَلِيمَ 22عِنْدَ اجْتِمَاعِ الشُّعُوبِ مَعاً وَالْمَمَالِكِ لِعِبَادَةِ الرَّبِّ.

23ضَعَّفَ فِي الطَّرِيقِ قُوَّتِي. قَصَّرَ أَيَّامِي. 24أَقُولُ: «يَا إِلَهِي، لاَ تَقْبِضْنِي فِي نِصْفِ أَيَّامِي. إِلَى دَهْرِ
الدُّهُورِ سِنُوكَ. 25مِنْ قِدَمٍ أَسَّسْتَ الأَرْضَ، وَالسَّمَاوَاتُ هِيَ عَمَلُ يَدَيْكَ. 26هِيَ تَبِيدُ وَأَنْتَ تَبْقَى، وَكُلُّهَا كَثَوْبٍ تَبْلَى.
كَرِدَاءٍ تُغَيِّرُهُنَّ فَتَتَغَيَّرُ. 27وَأَنْتَ هُوَ، وَسِنُوكَ لَنْ تَنْتَهِيَ. 28أَبْنَاءُ عَبِيدِكَ يَسْكُنُونَ، وَذُرِّيَّتُهُمْ تُثَبَّتُ أَمَامَكَ».

صلاة لمسكين إذا أعيا

هذا المزمور خامس مزامير التوبة السبعة، وهي 6، 32، 38، 51، 102، 130، 143. وقد طلب القديس أغسطينوس في مرضه الأخير أن يكتبوا له هذه المزامير ويعلِّقوها على الحائط في مواجهة فراشه ليراها ويقرأها ويتعزى بها. وكم نحتاج إلى وقفة تأمل مع الله نراجع فيها حياتنا، ونطلب: «اختبرني يا الله واعرف قلبي. امتحني واعرف أفكاري. وانظر إن كان فيَّ طريق باطل، واهدني طريقاً أبدياً» (مز 139: 23، 24). وتوزيع مزامير التوبة السبعة بين المزامير يعلِّمنا أن صلواتنا يجب أن تحتوي على الشكر والتسبيح، وطلب الإنقاذ والنجاة، وطلب الانتصار على الخطايا والضعفات، كما تحتوي على الاعتراف والتوبة. وهذا يتطلب عيوناً مفتوحة وآذاناً صاغية لصوت الله، لتكون حياتنا مَرْضيَّة أمامه.. وفي تلاوة مزامير التوبة ندرك أن الله لا يريد أن يسجل أخطاءنا ليعاقبنا عليها، بل أن نعترف بها ونتوب عنها فيغفرها. إنه أب محب قبل كل شيء، يفتح أحضانه دائماً للخاطئ التائب، وهو يقبلنا كما نحن في ضعفنا ليقوينا، وفي خطايانا ليطهرنا، ويقول: «هلمَّ نتحاجج يقول الرب. إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيَضّ كالثلج، وإن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف» (إش 1: 18).

يصف لنا هذا المزمور مشاعر مريض راقد على فراشه، حزين بسبب إحساسه بخطئه الذي جلب عليه المرض، وهو يصرخ: «من صوت تنهُّدي لصق عظمي بلحمي» (آية 5). كما أنه حزين على حال شعبه وكنيسة زمنه. فالمزمور صلاة مسكين أعيا وسكب شكواه أمام الله، لأن كأسه امتلأت بآلامه بسبب خطاياه وخطايا إخوته، وإذا تألم الجسد يتأثر العضو، وإذا تعب العضو يتأثر الجسد كله، كما قال الرسول بولس: «من يضعف وأنا لا أضعف؟ من يعثر وأنا لا ألتهب؟» (2كو 11: 29).. إلا أن المرنم يذكر مراحم الرب الكثيرة فيتعزى ويقول: «أنت تقوم وترحم صهيون لأنه وقت الرأفة، لأنه جاء الميعاد» (آية 13). ويطلب من الرب أن يتدخل ليعيد بناء الكنيسة فيعود المجد لله لأنه «إذا بنى الرب صهيون يُرى بمجده» (آية 16).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – شكوى المرنم (آيات 1-11)

ثانياً – أمل المرنم (آيات 12–22)
ثالثاً – مفارقتان معزيتان (آيات 23–28)

أولاً ـ شكوى المرنم
(آيات 1-11)

1 – شكوى صارخة: «يا رب استمع صلاتي وليدخل إليك صراخي. لا تحجب وجهك عني في يوم ضيقي. أمل إليَّ أذنك في يوم أدعوك. استجب لي سريعاً» (آيتا 1، 2). يصرخ المسكين الذي أعيا ساكباً شكواه للمنقذ القادر أن يعين المجرَّبين، الذي يتعطف ويترأف على البائسين، ويقوِّم المنحنين ويجبر منكسري القلوب ويعزي النائحين. إنه يطلب سماع صلاته من الرب القائل: «قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع» (إش 65: 24). وهو خائف من أن يحجب الرب نور وجهه البهي عنه في وقت ضيقه فتظلم الدنيا في وجهه، ويخشى أن يهمل الرب طلبته، أو يؤجل استجابتها، أو يمل من شكواه، فيطلب أن يدخل صراخه محضر الله، فيُميل أذنه إليه ويسرع بنجدته كما تنحني الأم لتمسح دموع طفلها الباكي. وإن كان البشر يسمعون صراخ أولادهم «أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً وهو متمهل عليهم؟.. إنه ينصفهم سريعاً» (لو 18: 7). وحتى إن لم يمنح المؤمن ما طلبه فإنه يمنحه نعمة وقوة تساعدانه على النصرة، ويقول له: «تكفيك نعمتي، لأن قوتي في الضعف تكمل» (2كو 12: 9).

2 – أسباب الشكوى: (آيات 3–11).

(أ) مرض شديد: «لأن أيامي قد فنيت في دخان، وعظامي مثل وقيدٍ قد يبست. ملفوحٌ كالعشب ويابسٌ قلبي حتى سهَوْتُ عن أكل خبزي. من صوت تنهُّدي لصق عظمي بلحمي» (آيات 3–5). يشكو المرنم من أنه قضى أياماً يحترق فيها مثل وقيد يابس من الأسى والحزن على خطاياه وخطايا شعبه، فأخذت حياته تتسرب سريعاً وبلا فائدة كالدخان، ويبست عظامه كأعواد الحطب الجافة، وصار قلبه، مصدر حياته ونشاطه، كالعشب الملفوح الذي يبَّسته الشمس القاسية، فلم يعد يرى فرحاً حتى زهد الطعام. وكثرت تأوهاته بسبب أورامه التي يصفها بأن عظمه لصق بلحمه، كما قال أيوب: «عظمي قد لصق بجلدي ولحمي، ونجوت بجلد أسناني» (أي 19: 20). ولعله كان يذكر القول: «بتأديبات إن أدبت الإنسان من أجل إثمه أفنيت مثل العُث مشتهاه. إنما كل إنسان نفخة» (مز 39: 11).

(ب) وحدة قاتلة: «أشبهتُ قوق البرية. صرتُ مثل بومة الخِرب. سهدْتُ وصرت كعصفور منفرد على السطح» (آيتا 6، 7). شبَّه المرنم نفسه بالطيور التي تعيش بعيداً عن الناس في أماكن قاحلة وأطلال خربة، فأصبحت نذير شؤم، كما شبَّه نفسه بعصفور وحيد يغني بصوت حزين على أحد السطوح، في حرارة الشمس أو هطول المطر، وقد عجزت جناحاه عن الطيران وصدئت حنجرته من مرارة النفس.

(ج) تعييرات الأعداء: «اليوم كله عيَّرني أعدائي. الحنِقون عليَّ حلفوا عليَّ. إني قد أكلت الرماد مثل الخبز، ومزجتُ شرابي بدموعٍ بسبب غضبك وسخطك، لأنك حملتني وطرحتني. أيامي كظل مائل، وأنا مثل العشب يبستُ» (آيات 8–11). في مرضه ووحدته شمت به أعداؤه، وعيَّروه بأن إلهه تركه، وفي حقدهم عليه وكراهيتهم له أقسموا أن يكونوا ضده ليزيدوا عذابه ويعجلوا بفنائه، فانكسرت نفسه داخله، ومضغ الرماد (رمز الحزن) وابتلعه، وامتزجت دموع الألم بشرابه، فكان لا يشبع ولا يرتوي. وعلم أن هذا كله يرجع إلى غضب الرب عليه بسبب خطاياه، فقد حمله وطرحه كزوبعة شديدة أو إعصار مدمر، كما قال إشعياء: «ذبلنا كورقة، وآثامنا كريحٍ تحملنا» (إش 64: 6)، وأمست أيامه كظل مائل لشمس غاربة وكعشب يابس لا جمال له ولا نفع، وكأنه يقول مع إرميا: «ويلٌ لنا لأن النهار مال، لأن ظلال المساء امتدَّت» (إر 6: 4).

ثانياً ـ أمل المرنم
(آيات 12-22)

1 – أمله في الرب: «أما أنت يا رب فإلى الدهر جالس وذكرك إلى دور فدور. أنت تقوم وترحم صهيون، لأنه وقت الرأفة، لأنه جاء الميعاد. لأن عبيدك قد سُرّوا بحجارتها وحنّوا إلى ترابها» (آيات 12-14). الأغلب أن المرنم كتب هذه الآيات أثناء السبي. فبعد أن رفع شكواه إلى الله رفع وجهه إلى فوق من أجل نفسه ومن أجل شعبه، فرأى الله الأزلي الأبدي صاحب السلطان، الذي قال لموسى: «هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد، وهذا ذكري إلى دور فدور» (خر 3: 15). والذي قال عنه إرميا: «أنت يا رب إلى الأبد تجلس. كرسيُّك إلى دور فدور» (مرا 5: 19). فلا بد أن يرحم صهيون حسب وعوده الصادقة، كما قال إشعياء: «طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عُفي عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها» (إش 40: 2)، لأن وقت الرأفة قد جاء، كما قيل لحبقوق: «لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد، وفي النهاية تتكلم ولا تكذب. إن توانت فانتظرها، لأنها تأتي إتياناً ولا تتأخر» (حب 2: 3). ويؤكد المرنم أن الله لا بد يشعر بمشاعر شعبه الذين يحبون أحجار مدينة الرب التي أسقطها نبوخذنصر إلى الأرض، والذين يحنّون إلى ترابها. لقد قال سنبلَّط ساخراً: «هل يُحيُون الحجارة من كُوَم التراب وهي مُحرَقة؟» (نح 4: 2). فقام الرب ليرحم، وأبطل سخرية سنبلَّط ومن يشابهونه. «لأنه يقول: في وقت مقبول سمعتك وفي يوم خلاص أعنتك. هوذا الآن وقت مقبول. هوذا الآن يوم خلاص» (2كو 6: 2). «ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم، وعلى رؤوسهم فرح أبدي. ابتهاج وفرح يدركانهم. يهرب الحزن والتنهد.. سريعاً يُطلَق المنحني ولا يموت في الجب ولا يُعدَم خبزُه» (إش 51: 11، 14).

2 – أمله في جيل آت سيدرك: (آيات 15-18).

عندما رفع المرنم عينيه إلى السماء فرح وامتلأت نفسه بالأمل في مجيء جيل جديد يعرف الرب:

(أ) **يعرف مهابة الرب:** «فتخشى الأمم اسم الرب، وكل ملوك الأرض يخشون مجده» (آية 15). عندما يعيد الرب شعبه من السبي إلى أورشليم يدرك الملوك وشعوبهم مجد الإله القادر على كل شيء «فيخافون من المغرب اسم الرب، ومن مشرق الشمس مجده. عندما يأتي العدو كنهر فنفخة الرب تدفعه.. فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك» (إش 59: 19 و60: 3). وهكذا يدرك جيل ما بعد نبوخذنصر أن الرب مجيد ومهوب، فتجثو له كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض، وتنتقل العبادة من صهيون الأرضية المحدودة إلى كل الأرض. وهذا ما حدث يوم الخمسين عندما حلَّ الروح القدس على العابدين المعيِّدين بالفصح من كل قبيلة وشعب وأمة تحت السماء (أع 2) فعادوا ليبشروا بلادهم «ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص» (أع 2: 21). «كان في أنطاكية في الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا (القبرصي الذي أعطى حقله للكنيسة) وسمعان الذي يدعى نيجر (الزنجي)، ولوكيوس القيرواني، ومناين الذي تربى مع هيرودس رئيس الربع (الأرستقراطي) وشاول (المتفقِّه في اللاهوت اليهودي)» (أع 13: 1).

(ب) **يعرف مجد الرب:** «إذا بنى الرب صهيون يُرَى بمجده» (آية 16). يظهر مجد الرب واضحاً في كنيسته التي بناها واقتناها بدمه، ليس من حجارة منحوتة، بل من حجارة حية هي هياكل مقدسة يحل فيها بروحه، وتتم النبوَّة القائلة: «وأزلزل كل الأمم، ويأتي مشتهى كل الأمم، فأملأ هذا البيت مجداً.. مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود» (حج 2: 7، 9).

(ج) **يعرف استجابة الرب:** «التفَتَ إلى صلاة المضطر ولم يَرذُل دعاءهم» (آية 17). تُظهر استجابة الرب لصلاة شعبه المسبي أنه سامع الصلاة الذي يأتي إليه كل بشر (مز 65: 2)، ويتبرهن أنه الإله الحقيقي وحده، الذي يستجيب صلاة المسكين المُتعَب الذي سكب شكواه أمام الله فلم يصرفه فارغاً، وهو الذي يشجع شعبه قائلاً: «وأما أنت فمتى صلَّيت فادخُل إلى مخدعك وأَغلِق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية» (مت 6: 6).

(د) **يعرف كتابة الرب:** «يُكتَب هذا للدور الآخِر، وشعبٌ سوف يُخلَق يسبح الرب» (آية 18). يسجل الوحي ويسجل التاريخ عمل الله العظيم، فيدرس الجيل القادم عظمة صنع الله مع الجيل الماضي، فيعرفون: «الإله القديم ملجأ، والأذرع الأبدية من تحت» (تث 33: 27). ويهتفون: «بمراحم الرب أغني إلى الدهر. لدور فدور أخبر عن حقك بفمي.. أما رحمة الرب فإلى الدهر والأبد على خائفيه وعدله على بني البنين، لحافظي عهده وذاكري وصاياه ليعملوها» (مز 89: 1 و103: 17، 18).

3 – أمله في الإنقاذ الإلهي: (آيات 19-22).

(أ) **الرب يرى ويسمع:** «لأنه أشرف من عُلو قدسه. الرب من السماء إلى الأرض نظر، ليسمع أنين الأسير، ليطلق بني الموت» (آيتا 19، 20). «الغارس الأذن ألا يسمع؟ الصانع العين ألا يبصر؟ المؤدب الأمم ألا يبكِّت؟» (مز 94: 9، 10). عندما رفع المرنم صلاته نظر الرب من سمائه ليستجيب الدعاء. عندما كان يشكو لم يكن الرب قد قام ليرحمه وليرحم شعبه (آية 13). أما الآن فإن ميعاد الرأفة قد جاء، فأشرف الرب من علاه ونظر إلى الأرض استجابة للدعاء: «تطلَّع من السماوات وانظُر من مسكن قدسك ومجدك.. فإنك أنت أبونا.. أنت يا رب أبونا، وليُّنا منذ الأبد اسمك» (إش 63: 15، 16). ولا بد أن يسمع الله أنين الأسير الذي أضناه ليل السجن الطويل، كما فعل مع بطرس فمنحه نوماً هادئاً وعاد فأيقظه لينقذه ويطلقه حراً (أع 12)، وكما فتح أبواب السجن لبولس وسيلا وأخرجهما منه (أع 16). وهو يرى آلام الخاطئ الذي قيدته الخطايا والشرور، وهو يصرخ تائباً، فيطلقه من أسر الشيطان، فيقول: «الله الذي هو غني في الرحمة من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح» (أف 2: 4، 5).

(ج) **الرب يعلن:** «لكي يُحدَّث في صهيون باسم الرب وبتسبيحه في أورشليم عند اجتماع الشعوب والممالك لعبادة الرب» (آيتا 21، 22). يميل الخطاة أن يقولوا: «الرب لا يبصر وإله يعقوب لا يلاحظ» (مز 94: 7)، ولكن الرب لم يترك نفسه بلا شاهد، فإن شفاء المسكين الذي أعيا، ورجوع الشعب المسبي إلى بلاده يجعل الجميع يدركون أن الرب هو الله، ويتوبون إليه ويؤمنون به ويسيرون في طريقه. «عينا الرب نحو الصديقين وأذناه نحو صراخهم» (مز 34: 15)، وكل مؤمن أنقذه الله يهتف: «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً.. وتقولون في ذلك اليوم: احمدوا الرب. ادعوا باسمه. عرِّفوا بين الشعوب بأفعاله. اذكروا بأن اسمه قد تعالى. رنموا للرب لأنه قد صنع مفتخراً. ليكن هذا معروفاً في كل الأرض» (إش 12: 2-5).

ثالثاً _ مفارقتان معزِّيتان

(آيات 23-28)

بعد الشكوى جاء الأمل لأن المسكين الذي أعيا هو وشعبه ثبَّت نظره على الله. وفي ختام هذا المزمور امتلأت نفس المرنم بالتعزية لأنه رأى قِصر أيامه في نور أزلية الله وأبديته، ثم وهو يرى العالم المتغيِّر من حوله في نور الثبات الإلهي.

1 – مفارقة بين الإنسان والله: «ضعَّف في الطريق قوتي، قصَّر أيامي. أقول: يا إلهي لا تقبضني في نصف أيامي، إلى دهر الدهور سنوك» (آيتا 23، 24). بسبب المرض رأى المسكين الذي أعيا جسده يشيخ قبل الأوان، ولكنه نقل نظره من ضعفه وقِصر أيامه ليتأمل الله صاحب السنين التي لا بداية لها ولا نهاية، فأدرك أن الرب خلق الإنسان ضعيفاً ليكون فضل القوة لله، وليذكر المخلوق خالقه فينال رحمة ويجد نعمة عوناً في حينه. «الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً. يخرج كالزهر ثم ينحسم، ويبرح كالظل ولا يقف» (أي 14: 1، 2). ولكن الله الأبدي يمنح الإنسان البائد حياة أبدية «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفَع ابن الإنسان لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية. لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3: 14-16). وما أجمل أن يدعو الإنسان الرب «يا إلهي» لأن هذه العلاقة الشخصية هي التي تمنح الإنسان قداسة وحياة أبدية.

2 – مفارقة بين الله والطبيعة: «من قِدمٍ أسَّست الأرض، والسماوات هي عمل يديك. هي تبيد وأنت تبقى، وكلها كثوب تبلى. كرداء تغيِّرهن فتتغير. وأنت هو، وسنوك لن تنتهي. أبناء عبيدك يسكنون، وذريتهم تثبت أمامك» (آيات 25-28). عندما قارن المسكين الذي أعيا عمره بعمر السماوات والأرض وجد أن حياته قصيرة وفانية. ولما رفع نظره إلى أعلى وقارن بين الله والطبيعة التي خلقها، وجد لأن للطبيعة بداية كما أن لها نهاية، وهي مؤقتة. أما الله فهو الأزلي الذي كان قبل العالم وقد خلقه، وسيبقى بعد أن تزول هيئة هذا العالم عندما «تزول السموات بضجيج، وتنحل العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها» (2بط 3: 10). والطبيعة تتغير طاعةً لأوامر الرب الذي يحرك الرياح وينزل الأمطار فتمتلئ البحار، ويزلزل الأرض ويفجر البراكين ويغير وجه الأرض، أما هو فيبقى أمساً واليوم وإلى الأبد (عب 13: 8). وقد اقتبس الرسول بولس هذه الآيات وهو يتحدث عن المسيح كلمة الله الأزلي (عب 1: 10-12).

ورغم قِصر أيام المسكين الذي أعيا يقول للرب: «أبناء عبيدك يسكنون وذريتهم تثبت أمامك» لأن الرب يسكنهم في طمأنينـــة ويثبتهم، فينمون ويتأصلون كشجرة مغروسة على مجاري المياه، التي تعطي ثمرها في أوانه وورقها لا يذبل. وما أجمل صـــورة المؤمنين المستقبلية التي رآها النبي دانيال: «وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيـــام، فقرَّبـــوه قدامـــه، فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقـــرض.. أما قديسو العلي فيأخذون المملكة، ويمتلكون المملكة إلى الأبد، وإلى أبد الآبدين» (دا 7: 13، 14، 18).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالثَّالِثُ

لِدَاوُدَ

1بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ. 2بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَلاَ تَنْسَيْ كُلَّ
حَسَنَاتِهِ. 3الَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. الَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ. 4الَّذِي يَفْدِي مِنَ الْحُفْرَةِ حَيَاتَكِ. الَّذِي يُكَلِّلُكِ بِالرَّحْمَةِ
وَالرَّأْفَةِ. 5الَّذِي يُشْبِعُ بِالْخَيْرِ عُمْرَكِ، فَيَتَجَدَّدُ مِثْلَ النَّسْرِ شَبَابُكِ.

6اَلرَّبُّ مُجْرِي الْعَدْلَ وَالْقَضَاءَ لِجَمِيعِ الْمَظْلُومِينَ. 7عَرَّفَ مُوسَى طُرُقَهُ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَفْعَالَهُ. 8اَلرَّبُّ
رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ. 9لاَ يُحَاكِمُ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَحْقِدُ إِلَى الدَّهْرِ. 10لَمْ يَصْنَعْ مَعَنَا حَسَبَ
خَطَايَانَا، وَلَمْ يُجَازِنَا حَسَبَ آثَامِنَا. 11لأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ. 12كَبُعْدِ
الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِيَنَا. 13كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ. 14لأَنَّهُ يَعْرِفُ
جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ. 15الإِنْسَانُ مِثْلُ الْعُشْبِ أَيَّامُهُ. كَزَهْرِ الْحَقْلِ كَذلِكَ يُزْهِرُ. 16لأَنَّ رِيحاً تَعْبُرُ عَلَيْهِ فَلاَ
يَكُونُ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مَوْضِعُهُ بَعْدُ. 17أَمَّا رَحْمَةُ الرَّبِّ فَإِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ عَلَى خَائِفِيهِ، وَعَدْلُهُ عَلَى بَنِي الْبَنِينَ،
18لِحَافِظِي عَهْدِهِ وَذَاكِرِي وَصَايَاهُ لِيَعْمَلُوهَا.

19اَلرَّبُّ فِي السَّمَاوَاتِ ثَبَّتَ كُرْسِيَّهُ، وَمَمْلَكَتُهُ عَلَى الْكُلِّ تَسُودُ. 20بَارِكُوا الرَّبَّ يَا مَلاَئِكَتَهُ، الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً،
الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِ كَلاَمِهِ. 21بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ جُنُودِهِ، خُدَّامَهُ الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ. 22بَارِكُوا الرَّبَّ
يَا جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، فِي كُلِّ مَوَاضِعِ سُلْطَانِهِ. بَارِكِي يَا نَفْسِيَ الرَّبَّ.

باركي يا نفسي الرب

هذا مزمور فرح وشكر وتسبيح، يبدأ وينتهي بالقول: «باركي يا نفسي الرب». فالرب هو ملجأ المؤمن في كل وقت. عندما يتعب يشكو له، فيفتح يد محبته ويُشبع الشاكي خيراً، وهو القائل: «اسألوا تُعطَوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم» (مت 7: 7). وعندما يفرح المؤمن يتَّجه إليه شاكراً مُمتنّاً، لأنه يختبر سخاء العطاء الإلهي، ويحسُّ بعظيم مديونيته، فيحثّ نفسه على أن تشكر، قائلاً: «باركي يا نفسي الرب». وإن كان من الطبيعي أن نصرخ في ضيقنا، فمن الواجب أن نشكر عندما نتبارك. وكما أننا نتوقَّع الاستجابة من الرب الكريم، يتوقَّع الرب منا أن نشكره عندما يعطينا، فعندما شفى المسيح عشرة رجالٍ مرضى بالبرَص لم يرجع إليه ليشكره إلا واحدٌ منهم، فتساءل: «أليس العشرة قد طهروا؟ فأين التسعة؟» (لو 17: 17).

من مطلع هذا المزمور ومن ختامه نتعلّم ضرورة الشكر لله، فنبدأ حياتنا الروحية ونختمها بالشكر. فعندما نبدأ حياتنا الروحية الصحيحة بالتوبة والاعتراف، متكلين على كفارة المسيح الغافرة، يدخل المسيح قلوبنا، فنبدأ عمرنا الروحي الجديد بالشكر قائلين: «كنتُ أعمى والآن أبصر» (يو 9: 25). وعندما تقترب حياتنا على الأرض من نهايتها نباركه ونشكره، لأنه بدأ فينا عملاً صالحاً وعد أن يكمله (في 1: 6)، وصرنا على وشك إكمال خلاصنا (رو 13: 11)، بأن نسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام (مز 23: 6).. ولنبدأ كل يومٍ بدعاء: «باركي يا نفسي الرب»، ولنختمه بدعاء: «باركي يا نفسي الرب».. وعندما تعترضنا مشكلة، لنبدأ حلَّها بالشكر لله حلال المشاكل، وعندما تنتهي بفضلٍ منه نشكره لأنه سمع واستجاب.

يبدأ المرنم مزموره بأن يطالب نفسه لتشكر الله على فضله عليه هو شخصياً وقد منحه خمس بركات، ثم ينتقل إلى حثّ الملائكة وجنود الرب وخدّامه وجميع أعماله لتشترك معه في شكر إله الرحمة والعدل والإعلان وحفظ العهد، الذي تسود مملكته على الجميع.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – المرنم يشكر (آيتا 1، 2)

ثانياً – خمس بركات من الله (آيات 3-5)

ثالثاً – رحمة الله (آيات 6-12)

رابعاً – الحاجة إلى الله (آيات 13-18)

أولاً - المرنم يشكر
(آيتا 1، 2)

في غمرة إحساس المرنم بفضل الله قال: «باركي يا نفسي الرب، وكل ما في باطني ليبارك اسمه القدوس. باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته» (آيتا 1، 2). لقد بارك الله المرنم من فضله، فطالب المرنم نفسه بأن تبارك الله بكل العقل والعاطفة والإرادة، بالفكر وباللسان، في كل الظروف، لأنه شعر بعظمة ديونه للخالق الكريم. قال الرسول بولس: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح» (أف 1: 3). وقال الرسول بطرس: «مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح، الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانيةً لرجاءٍ حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات، لميراثٍ لا يفنى ولا يتدنَّس ولا يضمحل، محفوظٌ في السماوات لأجلكم» (1بط 1: 3، 4). فهو يباركنا بعطاياه الغنية من روحية وجسدية، ونحن نباركه بأن نُرفِّعه، ونسبِّحه، ونقدِّس اسمه، ونشكره، ونعترف بفضله ونحكي عنه، ونقول له: «لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك» (1أي 29: 14).

1 - يباركه ويشكره لأنه الرب: هو سيد الكون وسيد الحياة، وصاحب السلطان في السماء وعلى الأرض، وله حيوان الوعر والبهائم على الجبال الألوف (مز 50: 10). وكما يشعر الابن بفضل أبيه لأنه «رب البيت» فيعبِّر له عن امتنانه، يعبِّر داود عن شكره لله لأنه رآه «الرب السيد».

2 - يباركه ويشكره لأنه القدوس: تهتف له الملائكة: «قدوس. قدوس. قدوسٌ رب الجنود، مجده ملء كل الأرض» (إش 6: 3). ورأى الرائي الخليقة تهتف له: «قدوس. قدوس. قدوس الرب الإله القادر على كل شيء، الذي كان، والكائن، والذي يأتي» (رؤ 4: 8). كل أعماله نقية، وكل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار، الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران (يع 1: 17). وهو النور الذي ليس فيه ظلمة البتة (1يو 1: 5).

3 - يباركه ويشكره لأنه المحسِن: وإحسانه إنعامٌ لا فضل للبشر فيه، فهو يُحسن لأنه بطبيعته المنعِم الوهاب «الذي يعطي الجميع بسخاءٍ ولا يعيِّر» (يع 1: 5). وبسبب سخائه في الإحسان نقول: «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء» لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل. «أما أنا فعلى رحمتك توكلتُ. يبتهج قلبي بخلاصك. أغنِّي للرب لأنه أحسن إليَّ» (مز 13: 5، 6).

يُجرَّب البشر بأن ينسوا تقديم الشكر لله، مع أنهم لم ينسوا أن يطلبوا احتياجاتهم منه! لذلك يقول: «احترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية.. احترز من أن تنسى الرب إلهك» (تث 6: 12 و8: 11). وعندما نطيع هذا الأمر نقول: «إحسانات الرب أذكر، تسابيح الرب، حسب كل ما كافأنا به الرب، والخير العظيم.. حسب مراحمه، وحسب كثرة إحساناته» (إش 63: 7).

ثانياً - خمس بركات من الله
(آيات 3-5)

يذكر المرنم خمس بركات يهبها الله للمؤمن، هي: غفران جميع الذنوب، وشفاء كل الأمراض، وفداء الحياة من الحفرة، وتكليل النفس بالرحمة والرأفة، وإشباع العمر بالخير.

1 - بركة الغفران: «الذي يغفر جميع ذنوبك» (آية 3أ). تبدأ البركات الخمس بشكر الله الذي يغفر جميع ذنوب الخاطئ التائب. وبالغفران يبدأ رضى الله عليه، ويبدأ عمله الصالح فيه. ولا يمكن للإنسان أن يتمتع بسائر عطايا الله إلا بعد أن يتأكد أن الله قد قبله ومنحه الغفران.

(أ) **معنى الغفران:** كلمة الغفران غنية بالمعاني، وإليك بعض معانيها:

(1) إخلاء السبيل: لما علم يوسف النجار خطيب العذراء مريم أنها حبلى «أراد تخليتها سراً» (مت 1: 19) بمعنى أن يخلي سبيلها. مع الفارق بين موقف يوسف وخطيبته المطوَّبة القديسة مريم وبين موقفنا نحن كخطاة أمام الله، فنحن مذنبون وذنبنا ظاهر وثابت. ومع هذا فإن الله يقول للخاطئ التائب: أنا أُخلي سبيلك، وأغفر لك ولا أطالب بعقابك على ما ارتكبت، ولن أذيع معصيتك. وهذا

ما فعله المسيح مع المرأة التي أُمسكت في ذات الفعل، فقد سامحها، وقال لها: «اذهبي ولا تخطئي أيضاً» (يو 8: 11) ولم يسجل الإنجيل اسمها، لأن الله أخلى سبيلها وسترها. كما لم يسجل الإنجيل لنا اسم السامرية الخاطئة التي تابت (يو 4)، وغيرهما كثيرات وكثيرون.

(2) العِتق والإطلاق: أعلن المسيح أن رسالته هي رسالة العِتق والتحرير، وهو ما تنبأ عنه النبي إشعياء، فقال: «أنادي للمأسورين بالعِتق» (إش 61: 1 ولو 4: 18). وعندما سامح الملك العبد المديون العاجز عن السداد «أطلقه وترك له الدَّيْن» (مت 18: 27)، وهو نفس معنى أن بيلاطس الوالي كان «في العيد معتاداً أن يطلق للجمع أسيراً واحداً» (مت 27: 15) فأطلق لهم باراباس. لم يكن باراباس بريئاً، لكنه أُطلق حراً في العيد. وهذا هو الغفران، فالرب يعتق الخاطئ المقيَّد بخطاياه، ويطلقه حراً. وقد قال المسيح: «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو 8: 36).

(3) السماح: ضرب المسيح مثلاً أنه كان لمداين مديونان «وإذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعاً» (لو 7: 42)، بمعنى أنه غفر لهما.

(4) الستر: يبدأ مزمور 32 بالقول: «طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته. طوبى لمن لا يحسب له الرب خطية، ولا في روحه غش»، وقال صاحب مزمور 85: «غفرتَ إثم شعبك، سترتَ كل خطيتهم» (آية 2). وعندما يستر الله الذنب لا يعود يراه لأنه غطاه وستره. حاول أبوانا الأولان أن يسترا نفسيهما بأوراق الشجر، ولكنه لم ينفع، فمنحهما الله الستر الحقيقي بالأقمصة الجلدية، من ذبيحة. هذا لباس البر، هذا من عند الله. فكم نشكر الله لأنه ستر وغطى وأخلى سبيل النفس الملوَّثة بالخطية، وأطلقها حُرَّة.

(5) المحو: «ارحمني يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ. استُر وجهك عن خطاياي وامْحُ كل آثامي» (مز 51: 1، 9)، يعني لا تجعلها مسجَّلة في سِفْرك، بل امحُها نهائياً.

(6) الإبعاد: «كبُعد المشرق من المغرب أبعد عنا معاصينا» (مز 103: 12) لن يلتقي الشرق والغرب، وكذلك لن تُرى معاصي الخطاة التائبين ولن تُحسَب عليهم، لأنها تُبعَد كبُعد المشرق من المغرب.

(7) الطرح: «مَن هو إله مثلك، غافر الإثم وصافحٌ عن الذنب لبقية ميراثه؟ لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يُسرُّ بالرأفة. يعود يرحمنا، يدوس آثامنا. وتُطرَح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (مي 7: 18، 19).

(8) النقل: لما اعترف داود أمام النبي ناثان بخطيته، قال له ناثان: «الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك. لا تموت» (2صم 12: 13). وقال الرسول بولس عن المسيح: «الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو 1: 13).

(ب) أساس الغفران: هناك أساسان لحصول الخاطئ على الغفران:

(1) الأساس الأول هو نعمة الله: عندما كتب داود مزمور 103 بوحي الروح القدس، كان يفكر في حمَل الفصح الذي وضع العبرانيون دمه ليلة خروجهم من مصر على العتبة العليا لأبوابهم وعلى قائمتيها، فرأى الملاك المُهلك الدم وعبر عنهم (خر 12: 13-23)، كما كان يفكر في الحية النحاسية التي رفعها موسى في صحراء سيناء، وكلُّ من نظر إليها من بني إسرائيل الذين لدغتهم الحيات السامة كان يُشفى من السم القاتل (عد 21).

وكان حمل الفصح والحية النحاسية رمزين للخلاص الآتي بالمسيح، فعندما رأى يوحنا المعمدانُ المسيحَ قال: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو 1: 29، 36). وقال الرسول بولس: «لأن فصحنا أيضاً المسيح، قد ذُبح لأجلنا» (1كو 5: 7). وقال المسيح لنيقوديموس: «كما رفع موسى الحية في البرية، هكذا ينبغي أن يُرفَع ابنُ الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3: 14، 15).

غفران الخطية إذاً هو إنعام من الله وحده «لأنكم بالنعمة مُخلَّصون، بالإيمان، وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحدٌ» (أف 2: 8، 9).

(2) الأساس الثاني هو التوبة: صلّى جابي الضرائب: «اللهمَّ، ارحمني أنا الخاطي» فنزل إلى بيته مبرَّراً، وقد غفر الله له خطاياه (لو 18: 13). وقال اللص التائب للصِّ الآخَر على الصليب: «نحن (مصلوبان) لأننا ننال استحقاق ما فعلنا» ثم قال للمسيح: «اذكُرني يا رب متى جئت في ملكوتك» فأجابه المسيح: «الحقَّ أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لو 23: 40-43).

وليس من السهل على الطبيعة الإنسانية أن تعترف بخطاياها وتتوب، لأننا نحب أن نلقي اللوم على غيرنا. أما الاعتراف بأخطائنا فيعني أننا اكتشفنا ذنوبنا ونقصاناتنا، كما اكتشفنا عجزنا عن تخليص أنفسنا، فنلجأ إلى المخلّص القادر أن يخلِّص إلى التمام (عب 7: 25).

وفي سبيل الحصول على الغفران يحاول بعض البشر أن يحفظوا الشرائع، ولكنهم سرعان ما يكتشفون أنها تُظهِر لهم خطاياهم، لأنها كالمسطرة التي تكشف النقص والعوَج، لكنها تعجز عن تكميل النقص وإصلاح العوَج. وكلما حاول الإنسان تطبيق الشرائع اتَّضح له عجزه، فيصرخ: «ويحي أنا الإنسان الشقي! من ينقذني من جسد هذا الموت؟» (رو 7: 24).

ويحاول البعض الآخر أن يحصلوا على الغفران بالقيام بأعمال صالحة، وينسون أن الوقت المبذول في العمل الصالح هو من العُمر الممنوح لهم من الله، والمالَ الذي يقدمونه للمحتاجين هو عطية الله، والذكاءَ الذي يخدمون به هو من عند الله. إذاً فلا يمكن أن نحصل على الغفران إلا بإنعام من الله، بعد أن نصدِّقه ونعتمد على نعمته الواضحة في الصليب، كما رأينا في دم الفصح على الباب، وفي الحية النحاسية على الراية، لأنه «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة (بعد أن تغيَّر الاتجاه). الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (2كو 5: 17). فلنرجع إلى الله تائبين، واثقين في كفارة المسيح الذي قال: «من يُقبِل إليَّ لا أُخرجه خارجاً» (يو 6: 37)، فنسرع إليه قائلين: «قلتَ اطلبوا وجهي، وجهك يا رب أطلب» (مز 27: 8).

(ج) بركات الغفران: بدأ المرنم البركات الخمس ببركة الغفران، لأنه أساس التمتُّع بكل بركات الله، فلا يمكن أن يتمتع الإنسان ببركات الله من صحةٍ وعائلة وعمل إلا إن كان في سلام مع الله، لأن الخطية تقيم حاجزاً بين الإنسان وربِّه، يحجب عنه النور الإلهي، فتظلم حياته، مهما امتلك من صحة وغنى ومعرفة وأصدقاء. لا تستطيع الصحة أن تعطي نوراً للحياة، ولا يقدر المال مهما زاد أن يشرق على قلوبنا. والمعرفة تزيد الإنسان غماً لأنه كلما زاد الإنسان معرفة زاد إحساساً بجهله، و«لعمل كتبٍ كثيرة لا نهاية، والدرس الكثير تعبٌ للجسد» (جا 12: 12). واحدٌ فقط يقدر أن يمتعنا بالحياة، هو الله، عندما يمنحنا غفرانه، وهو القائل: «أن يشرق نور من ظلمة، هو الذي أشرق على قلوبنا، لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (2كو 4: 6). «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا، ويطهِّرنا من كل إثم» (1يو 1: 9). «الذي لنا فيه الفداء، بدمه غفران الخطايا، حسب غنى نعمته» (أف 1: 7).

وعندما ننال غفران الله نحصل على السلام مع الله ومع نفوسنا ومع الآخرين، ويُنعم علينا بالتبنّي، لأن كل الذين قبلوا خلاص المسيح «أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا.. من الله» (يو 1: 12، 13). عندها يقولون لبعضهم: «انظُروا أية محبة أعطانا الآب حتى نُدعَى أولاد الله!» (1يو 3: 1). ويقولون: «فإذ قد تبررنا بالإيمان (بما عمله المسيح من أجلنا) فلنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح، الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله. وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضاً في الضيقات، عالمين أن الضيق ينشئ صبراً، والصبرُ تزكيةً، والتزكيةُ رجاءً، والرجاء لا يُخزي، لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعْطى لنا» (رو 5: 1-5). فما أجمل أن نقيم في نعمة الإيمان، والقرب من الله، والسلام، فنتبع مخلِّصنا في ثقة ومحبة وطاعة.

2 - بركة الشفاء: «الذي يشفي كل أمراضك» (آية 3ب). ملكنا السماوي هو الوحيد القادر أن «يغفر جميع ذنوبك»، و«يشفي كل أمراضك».. قد يصيب المرض إنساناً بسبب إحساسه بالذنب، فيشفي الرب روحه بالغفران، ثم يشفي جسده، كما قال المسيح للمفلوج: «يا بُنيَّ، مغفورة لك خطاياك» ثم قال له: «لك أقول: قُم، واحمِل سريرك واذهب إلى بيتك» (مر 2: 5، 11)، وكما قال لمريض بركة بيت حِسدا، بعد أن شفاه: «ها أنت قد برئت، فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشرُّ» (يو 5: 14).

وقد يصيب المرض إنساناً بسبب انكسار نفسه وحزنه، كما قيل: «الغمُّ في قلب الرجل يُحنيه» (أم 12: 25). ولكنه عندما ينشئ علاقة شخصية واضحة مع الله يلجأ إليه بدالة البنين مصلياً: «أبانا الذي في السموات» (مت 6: 9) ويطلب تعزية من حزنه، فيتحقَّق معه الوعد الإلهي: «كإنسانٍ تعزّيه أمه هكذا أعزّيكم أنا» (إش 66: 13). وبهذه العلاقة الحلوة الشخصية مع الله يُشفَى المريض من مرضه الناتج من انكسار النفس، فيقول: «لماذا أنتِ منحنية يا نفسي، ولماذا تئنين فيَّ؟ ترجَّي الله، لأني بعدُ أحمده، خلاصَ وجهي وإلهي» (مز 42: 11)، فيسمع: «لكم أيها المتَّقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها» (ملا 4: 2).

وهناك أمراض جسدية. وهذه يقدِّم لها الرب علاجاً بالدواء، أو بالمعجزة، أو بالنعمة التي تمكّن المريض من احتمال آلام مرضه، ويتم الشفاء الكامل بانتقال المؤمن إلى المجد السماوي.

(أ) الشفاء هو إعادة الشيء إلى أصله: خلق الله الإنسان صالحاً صحيحاً، ولكن الخطية دمَّرت كل شيء، فالبر والمصالحة مع الله أصيلة أما الخطية فدخيلة، والصحة أصيلة أما المرض فدخيل، لذلك قال المرنم: «قبل أن أُذلَّل أنا ضللت» (مز 119: 67). وعندما نقول إن الله يشفي كل أمراضنا نتحدث عن الرب الخالق الذي يُعيد الشيء إلى طبيعته الأصلية. خلق الله الإنسان بعد أن

خلق كل الأشياء، ورأى أن كل ما صنعه حسن، بل وحسنٌ جداً (تك 1: 4، 31). ولكن «بإنسانٍ واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» (رو 5: 12).

(ب) الرب هو الشافي: عرَّف الرب بني إسرائيل بنفسه أنه «الرب شافيك»، وذلك بعد خروجهم من مصر، فقد «ارتحل موسى بإسرائيل من «بحر سوف» وخرجوا إلى «برية شور»، فساروا ثلاثة أيام في البرية ولم يجدوا ماءً، فجاءوا إلى «مارة» ولم يقدروا أن يشربوا ماءها لأنه مُر، لذلك دعوها «مارة». فتذمر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه الرب شجرة، فطرحها في الماء، فصار الماء عذباً. «هناك وضع له فريضة وحُكماً، وهناك امتحنه، فقال: إن كنت تسمع لصوت الرب إلهك، وتصنع الحق في عينيه، وتصغي إلى وصاياه، وتحفظ جميع فرائضه، فمرضاً ما مما وضعتُه على المصريين لا أضع عليك، فإني أنا الرب شافيك» (خر 15: 22-26).

واللقب «الرب شافيك» في اللغة العبرية هو «يهوه روفي». ولعل الكلمة العربية «رفا» أُخذت من كلمة «روفي». والرفا هو الذي يعيد نسيج القماش المهترئ إلى أصله. والرب هو الشافي الذي يعيد نسيج الجسم البشري المهترئ إلى أصله، فتلتئم جروحه، وتُجبَر كسوره. قال مارتن لوثر: «الطبيب هو إسكافي الجسد البشري، لأنه يخيط أجزاءه الممزقة معاً». والرب هو الطبيب الشافي الأعظم، فقد قال المسيح: «أتيتُ لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل» (يو 10: 10). والحياة الفضلى هي الحياة السليمة التي يلمسها الرب ببركته، فيغفر جميع الذنوب ويشفي كل الأمراض. له نصلي: «اشفِني يا رب فأُشفى. خلِّصني فأُخلَّص، لأنك أنت تسبيحتي» (إر 17: 14).

(ج) كيف يشفينا الرب؟

(1) يشفي عن طريق الدواء: ويذكر الكتاب المقدس حالات شفاءٍ جرى باستخدام أدوية، منها:

* شفاء الملك حزقيا: أصيب حزقيا بقُرحَة مميتة، فقال له النبي إشعياء: «هكذا يقول الرب: أوصِ بيتك لأنك تموت ولا تعيش». فوجَّه حزقيا وجهه إلى الحائط وصلى: «آه يا رب! اذكُر كيف سرتُ أمامك بالأمانة وبقلبٍ سليم، وفعلتُ الحسن في عينيك». وبكى حزقيا بكاءً عظيماً. فقال الله لإشعياء: «اذهب وقُل لحزقيا: هكذا يقول الرب إله داود أبيك: قد سمعت صلاتك. قد رأيت دموعك. ها أنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة».. وكان إشعياء قد قال: «ليأخذوا قرص تين ويُضمِّدوه على الدَّبْل (القُرحة) فيبرأ» (إش 38: 1-5، 21).

* شفاء أَبَفْرودِتُس: حمل أبفرودتس هدية مالية من كنيسة فيلبي للرسول بولس الذي كان مسجوناً وقتها في روما، وتطوَّع أن يقوم بخدمة الرسول، لكن المرض الشديد أقعده، فقام الرسول بتمريضه حتى شُفي. ومع أن الله كان قد وهب الرسول موهبة شفاء الناس بمعجزة (أع 14: 8-10 و16: 16-18 و28: 8)، إلا أن الله في حكمته قصد أن يُشفى أبفرودتس بالطرق العادية، فعولج أبفرودتس حتى شُفي، وكتب الرسول عنه: «فإنه مرض قريباً من الموت، لكن الله رحمه. وليس إياه وحده بل إياي أيضاً» (في 2: 27).

* شفاء تيموثاوس: أرسل الرسول بولس وصفةً طبية إلى تيموثاوس (غالباً بنصيحة من الطبيب لوقا) قال فيها: «لا تكُن في ما بعد شرَّاب ماء، بل استعمل خمراً قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة» (1تي 5: 23).

(2) يشفي عن طريق المعجزة: تمتلئ صفحات الكتاب المقدس بقصص الشفاء المعجزي. وقال الرسول يعقوب: «أمريض أحدٌ بينكم؟ فليدعُ شيوخ الكنيسة، فيصلّوا عليه، ويدهنوه بزيتٍ، باسم الرب. وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه، وإن كان قد فعل خطية تُغفَر له» (يع 5: 13، 14). ونقدم مثَلين للشفاء المعجزي من العهدين القديم والجديد:

* شفاء نعمان السرياني: لم يكن للبَرص علاج، فكان المريض به ميتاً لا محالة. وقد نال نعمان السرياني شفاءه من البَرص بأن «غطس في الأردن سبع مرَّات حسب قول رجل الله (النبي أليشع) فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطَهُر» (2مل 5: 10-15).

* شفاء مولود أعرج: هذه أول معجزة جرت بعد يوم الخمسين، وفيها شُفي أعرج في الأربعين من عمره، لم يمشِ قط، فأمسكه بطرس بيده اليمنى وأقامه، فأخذ يقفز فرحاً (أع 3).

(3) يمنح النعمة للمريض فيحتمل المرض: وأعظم نموذج على ذلك هو ما حدث مع الرسول بولس، فقال: «أُعطيت شوكة في الجسد، ملاك الشيطان ليلطمني» (2كو 12: 7). ولا نعرف بالضبط ما هي تلك الشوكة. ربما كانت مرضاً في عينيه (غل 4: 13-15). وصلى بولس ثلاث مرات طالباً الشفاء، فلم يُشفَ، لكن الرب قال له: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمَل» فقال بعدها: «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحل عليَّ قوة المسيح» (2كو 12: 9).

(4) يمنح الرب الشفاء الكامل في السماء: يدرك المؤمن أن له حياة أبدية لا تنتهي أبداً، بدأت يوم فتح قلبه للرب. لذلك لا يعتبر المؤمنُ الموتَ موتاً، لكنه انتقال إلى حياة أفضل، فيقول: «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح.. لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً» (في 1: 21، 23). هناك «سيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكون حزنٌ ولا صراخٌ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت. وقال الجالس على العرش: ها أنا أصنع كل شيء جديداً» (رؤ 21: 4، 5). وهذه هي الصحة الكاملة والشفاء الكامل الذي يريد الرب أن يعطيه للمؤمن.

3 - بركة الفداء: «الذي يفدي من الحفرة حياتك» (آية 4أ). للحفرة في الكتاب المقدس معنيان: القبر (أي الموت الجسدي)، أو الجحيم (أي الهلاك الأبدي). والذي يباركه الله بمغفرة خطاياه يفديه من جحيم النار، والذي يباركه بشفائه من المرض يفديه من حفرة القبر. وذكر أليهو صديق أيوب البركتين في قوله: «ليحوِّل الإنسانَ عن عمله، ويكتُمَ الكبرياءَ عن الرجل (أي ليمنحه التوبة بتحويل مساره، ويُبعِد عنه الكبرياء فيعترف للرب بذنوبه)، ليمنع نفسه عن الحفرة وحياته من الزوال بحَرْبَة الموت» (أي 33: 17، 18). وقد نال الملك حزقيا البركتين، فرنَّم ترنيمة شكر قال فيها: «أيها السيد، بهذه يحيون (من الموت)، وبها كل حياة روحي (من الجحيم): فتشفيني وتحييني. هوذا للسلامة قد تحوّلت لي المرارة، وأنت تعلَّقت بنفسي من وهدة الهلاك، فإنك طرحت وراء ظهرك كل خطاياي» (إش 38: 16، 17).

(أ) الفداء من الحفرة التي يحفرها الناس لنا: بهذا القول لا بد أن داود كان يذكر مؤامرات الملك شاول ضده ليقتله، منها أنه عرض عليه أن يزوِّجه ابنته، إن هو قتل مئة رجل من أعداء الملك، وهو بهذا يحفر حفرة لداود متوقِّعاً له الموت أثناء القيام بذلك (1صم 18). وحفر أقرب الأقرباء لداود، وهو ابنه أبشالوم، حفرة بأن دبَّر انقلاباً ليقتله ويملك مكانه (2صم 15). ولكن الرب أنقذ داود من حُفر الموت هذه.

ولا بد أيضاً أن داود كان يذكر جدَّه الأكبر يوسف، وقد طرحه إخوته في بئر، ولكن الرب كان مع يوسف وفكان رجلاً ناجحاً (تك 39: 2)، وأنقذه من سجن فرعون، وولاه منصباً رفيعاً، فقال لإخوته: «أنتم قصدتم لي شراً، أما الله فقصد به خيراً.. ليحيي شعباً كثيراً» (تك 50: 20).

وقد يحفر لك صديقٌ حفرةً بنيَّة حسنة، ليُبعدك عن شيء مكلِّف لكنه لازمٌ وصالح لتحقيق مقاصد الله، كما انتهر بطرسُ المسيحَ ليُبعده عن الصليب، فقال المسيح له: «اذهب عني يا شيطان. أنت معثرةٌ لي، لأنك لا تهتم بما لله، لكن بما للناس» (مت 16: 23).

(ب) الفداء من الحفرة التي يحفرها إبليس لنا، أو نحفرها نحن لأنفسنا: قال الرسول يعقوب: «لا يقُل أحد إذا جُرِّب إني أجرَّب مِن قِبَل الله، لأن الله غير مجرَّب بالشرور، وهو لا يجرِّب أحداً (بالشرور). ولكن كل واحد يُجرَّب إذا انجذب وانخدع من شهوته، ثم الشهوة إذا حبلت تلدُ خطية، والخطية إذا كمَلت تنتج موتاً» (يع 1: 13-15). فالإنسان الذي ينجذب بخداع إبليس يسقط في حفرة العصيان. يخدعنا إبليس عندما يصوِّر لنا الشر خيراً، فننخدع بتصويره الزائف. وإبليس لا يلوي ذراع أحدٍ ليخطئ، لكنه يكتفي بالاقتراحات الكاذبة، والإنسان هو الذي يقبل أو يرفض. حاول فرعون أن يضرَّ بني إسرائيل، ولكن الضرر الذي أضرَّ به بنو إسرائيل أنفسهم كان أخطر. لقد أوقع فرعون الأذى الجسدي بهم، لكن الذي أهلكهم كان تذمُّرهم على الله، وسقوطهم في قبور الشهوة في موقع اسمه «قبروت هتأوة» (عد 11: 33، 34).

ويحذِّر الرب الناس من الخطأ، والإنسان هو الذي ينتبه إلى التحذير أو ينجذب إلى الخديعة. وفي الحالتين يريد الرب أن يفدي الإنسان التائب من حفرة إبليس، ومن سقوطه في فخِّه. وواضحٌ أنه لا خطر على السفينة من المياه التي تحيط بها، لكن الخطر كامنٌ في دخول المياه إليها. لذلك صلى المسيح لأجل المؤمنين قائلاً: «لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير» (يو 17: 15).

(ج) كيف يتمُّ الفداء: لا بد أن داود كان يفكر في الفداء كما علَّمته شريعة موسى، فالفادي هو الذي يفدي الأسير، وهو الذي يفكُّ أسر المديون العاجز عن وفاء ديونه. وكلمة «الفادي» تعني «ولي الأمر» وتعني «المخلِّص». وولي الأمر هو القريب الأقرب، كما يتَّضح من قول نُعمي لراعوث عن بوعز: «الرجل ذو قرابةٍ لنا. هو ثاني وليِّنا» (را 2: 20)، فقد كان هناك قريبٌ أول رفض أن يقوم بمسؤولية ولي الأمر، فقام «بوعز» القريب الأقرب الثاني بالواجب كله.. وعندما قال داود إن الرب هو الذي يفدي من الحفرة حياته كان يقصد أن الرب هو أقرب قريب له، وأنه وليُّ أمره. وكان الفكاك من العبودية، ومن الديون يتم في سنة اليوبيل (لا 25: 25، 47-49). ويعلِّمنا الإنجيل أن المسيح جاء ليعلن قيام سنة اليوبيل هذه، ودعاها «سنة الرب المقبولة» التي ينادي فيها للمأسورين بالإطلاق

وللمنسحقين بالحرية (لو 4: 19)، وبهذا أعلن أنه فادينا، ووليُّ أمرنا، وأقرب قريب لنا، الذي وحده ينقذنا من حفرة الخطية، التي تنتهي بمن يسقط فيها إلى حفرة الجحيم الأبدي!.. وفي اليوم الأخير يقيم الرب أجساد المؤمنين من حفرة قبورهم، عند مجيء المسيح ثانيةً «لأن الرب نفسه سوف ينزل من السماء بهتاف، بصوت رئيس ملائكة وبوق الله، والأموات في المسيح سيقومون أولاً» (1تس 4: 16).

ولا بد أن نتساءل: كيف يكون المسيح قريبنا؟ يقول الوحي إن المسيح هو الخالق، وهو ابن الله منذ الأزل، ونحن المخلوقون من التراب. هو القدوس من السماء، ونحن الخطاة من الأرض.. غير أن الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، أتانا مولوداً تحت الناموس من العذراء القديسة مريم (أف 2: 4 وغل 4: 4)، و«عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد» (1تي 3: 16). «الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا، ورأينا مجده، مجداً كما لوحيدٍ من الآب، مملوءاً نعمة وحقاً.. ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمةً فوق نعمة» (يو 1: 14، 16) فقال له مارتن لوثر: «يا سيدي المسيح، لقد صرتَ ما لم تكُنْه لأصير أنا ما لم أكُنْه». صار هو إنساناً ليجعلنا شركاء الطبيعة الإلهية (2بط 1: 4)، وعلى الصليب حمل خطايانا وصار خطيةً لأجلنا، لنصير نحن برَّ الله فيه (2كو 5: 21). وهو بحقٍّ هذا الفداء يقول لكل من يؤمن به: «لا تخف لأني فديتك. دعوتك باسمك. أنت لي» (إش 43: 1).

عندما وُلد يوحنا المعمدان امتلأ أبوه زكريا بالروح القدس، وتنبأ قائلاً: «مباركٌ الرب إله إسرائيل، لأنه افتقد وصنع فداءً لشعبه» (لو 1: 68). والافتقاد هو الزيارة. ووعد المسيح المؤمنين به أن يفتقدهم ويزورهم دائماً، بل أن يصحبهم في رحلة حياتهم، فقال: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت 28: 20). لقد جاء المسيح في صورة إنسان وافتقد كوكب الأرض، وصنع فداءً أبدياً. وعندما كنا يائسين في حفرة خطايانا، أتانا، ولا زال يفتقدنا في كل أحوالنا: في خطايانا، وفي أمراضنا، وفي مؤامرات الأعداء علينا. ونسمعه دوماً ينادينا: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم» (مت 11: 28). وعندما نقبل دعوته نصير «متبرِّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رو 3: 24).

4 - بركة الرحمة والرأفة: «الذي يكللك بالرحمة والرأفة» (آية 4ب). في البركات الثلاث الأولى رأينا الله يُنعِم علينا بالأساسيات، من غفرانٍ وشفاءٍ وفداء، وفي البركتين الرابعة والخامسة نراه يعطي الكماليات، من تكليل الرأس بالرحمة والرأفة، والإشباع بالخير الذي يجدد الشباب. ويقول المرنم للرب إنه يكلل أولاده بالرحمة والرأفة، وهذا يعني أنه يعتبرهم أمراء، فيُلبسهم إكليلاً من الرحمة والرأفة، لأنهم أبناء الملك السماوي.

(أ) إكليل الرحمة يعني قرابة الأرحام: الرحمة في اللغة العبرية تعني قرابة الأرحام والدم والعائلة. وقد رحم الرب شعبه بأن أنعم عليهم بالتبني، وجعلهم من عائلته وأهل بيته. فعندما أرسل موسى إلى فرعون ليُخرج بني إسرائيل من مصر أمر موسى أن يقول لفرعون: «هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر.. أطلِق ابني ليعبدني» (خر 4: 22، 23). وقال المسيح: «الذي يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي» (مت 12: 50). ويقول الله للمؤمنين: «فلستُم إذاً بعد غرباء ونزلاً، بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله» (أف 2: 19). ولما كنا لا نستحق الرضا الإلهي بسبب عصياننا، فإنه يرحمنا عندما نصرخ إليه: «ارحمني يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ» (مز 51: 1). وكل الذين يقبلون المسيح فادياً رحيماً يعطيهم «سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا ليس من دمٍ، ولا من مشيئة جسدٍ، ولا من مشيئة رجلٍ، بل من الله» (يو 1: 12، 13) يعني الذين وُلدوا ليس من علاقة جسدية، ولا من إرادة بشرية، بل بعملٍ إلهي. ويتعجب المؤمنون من هذا التبني السماوي فيقولون لبعضهم: «انظروا أيَّة محبة أعطانا الآب حتى نُدعى أولاد الله» (1يو 3: 1) «إذْ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبني، الذي به نصرخ: يا أبا الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً فإننا ورثةٌ أيضاً، ورثةُ الله ووارثون مع المسيح» (رو 8: 14–17). ويعود الفضل في هذا كله إلى المسيح الذي جاء «ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال التبني. ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب. إذاً لستَ بعد عبداً بل ابناً. وإن كنت ابناً فوارثٌ لله بالمسيح» (غل 4: 5–7). وهذا يعني أن التبني يعطينا حقَّ أن ندعو الله: «يا أبا الآب». وهو دعاءٌ مكوَّن من كلمتين: «أبا» وهي سريانية و«الآب» وهي يونانية. والمقصود أننا ننادي الله بدالة البنوَّة «أبا» وندعوه بكل الاحترام «أيها الآب». وتعود دالة البنوَّة إلى الجراءة والقدوم الممنوحَين لنا من الله (أف 3: 12). وعندما يُنعم الله علينا بالتبنّي نصبح ورثة الله ووارثين مع المسيح. فمبارك الله.

(ب) إكليل الرحمة يعني رأفة الله على شعبه: يترأف الرب على شعبه بعد أن أنعم عليهم بالتبني، وجعلهم أهل بيته. وتظهر هذه الرأفة في قوله لموسى: «قد رأيتُ مذلَّة شعبي الذي في مصر.. إني علمت أوجاعهم.. فالآن هلمَّ فأرسلك إلى فرعون وتُخرج شعبي بني إسرائيل من مصر» (خر 3: 7، 10). وعبَّر النبي إشعياء عن رأفة الله على شعبه بقوله: «في كل ضيقهم تضايق،

وملاك حضرته خلَّصهم. بمحبته ورأفته هو فكَّهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة» (إش 63: 9). وعندما يتأمل كل مؤمن أيامه القديمة ينذهل من الرحمة الإلهية، ويمتلئ قلبه بالثقة في المستقبل، لأن الله «هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد» (عب 13: 8). فالذي فكَّ المتضايق من قيوده، ورفعه وحمله كل الأيام القديمة، يفك ويرفع ويحمل في الحاضر والمستقبل أيضاً، كما قال الرسول بولس: «الذي نجّانا من موتٍ مثل هذا، وهو ينجي. الذي لنا رجاء فيه أنه سينجي أيضاً فيما بعد» (2كو 1: 10، 11).

وقد أظهر الله رأفته العظيمة علينا عندما جاءنا في صورة إنسان، و«في ما هو قد تألم مجرَّباً يقدر أن يعين المجرَّبين» (عب 2: 18). وقد أعانهم، فكان «يطوف المدن كلها والقرى يعلِّم في مجامعها، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. ولما رأى الجموع تحنَّن عليهم إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنمٍ لا راعي لها» (مت 9: 35، 36). وعندما «أبصر جمعاً كثيراً تحنَّن عليهم وشفى مرضاهم. ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين: الموضع خلاء والوقت قد مضى. اصرف الجموع لكي يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً. فقال لهم: لا حاجة لهم أن يمضوا. أعطوهم أنتم ليأكلوا.. ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين.. وبارك.. فأكل الجميع وشبعوا» (مت 14: 14-21). وعندما وقف عند قبر لعازر وسمع بكاء الأختين الحزينتين بكى لبكائهما (يو 11: 35).

(ج) إكليل الرحمة والرأفة يتوِّج رؤوس المؤمنين: تظهر رحمة الرب في أنه يضع على رؤوس المؤمنين أكاليل مختلفة لها صفة الدوام، وقد قارن الرسول بولس بين الإكليل المؤقَّت الفاني من الزهور، الذي يناله المتسابقون في الألعاب الأولمبية وبين الإكليل الدائم الذي يناله المؤمن المجاهد في سبيل الله، فقال: «كل من يجاهد يضبط نفسه في كل شيء. أما أولئك فلكي يأخذوا إكليلاً يفنى، وأما نحن فإكليلاً لا يفنى» (1كو 9: 25). فالمؤمنون الذين يركضون بأمانة واجتهاد في السباق الروحي العظيم، وهم يجاهدون ضد الخطية وضد الشيطان، يُنعم الرب عليهم بإكليلٍ لا يفنى، ويذكر الوحي مجموعة أكاليل يضعها الله على رأس المؤمنين:

(1) إكليل المجد والبهاء: تعجَّب المرنم من مراحم الرب الخالق العظيم الذي يذكر الإنسان المخلوق من التراب ويفتقده، فقال: «إذا أرى سماواتك، عمل أصابعك، القمر والنجوم التي كوَّنتها، فمن هو الإنسان حتى تذكره، وابن آدم حتى تفتقده؟ وتنقُصَه قليلاً عن الملائكة، وبمجدٍ وبهاءٍ تكلِّله» (مز 8: 3-5). فما أعظم الرحمة التي تضع على رأس الإنسان الضعيف إكليلاً من المجد والبهاء، وتسلطه على خليقة الرب، وتجعل كل شيء تحت قدميه!

على أن إكليل المجد الأسمى هو الذي يُنعِم الله به على الرعاة المجاهدين في خدمته وخدمة من كلَّفهم برعايتهم، فيقول لهم الرسول بطرس: «متى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى» (1بط 5: 4). وكلنا راعٍ مسؤول عن رعيته، سواء كنا آباء أو أمهات أو معلّمين أو قسوساً أو مسؤولين.

(2) إكليل الحكمة: قال سليمان الحكيم إن الحكمة: «تعطي رأسك إكليل نعمة. تاج جمالٍ تمنحك» (أم 4: 9). فالحكمة تاجٌ يُنعِم الرب به على رؤوس المؤمنين. وقال الرسول يعقوب: «إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيِّر، فسيُعطى له» (يع 1: 5). والإنسان الحكيم هو الذي يسلم نفسه للرب، ويكون رابح نفوس (أم 11: 30)، فينال غفران خطاياه، وشفاء أمراضه، والفداء من الحفرة، وإكليل الحكمة.

(3) إكليل العائلة السعيدة: لأن «المرأة الفاضلة تاج لبعلها» (أم 12: 4)، و«تاج الشيوخ بنو البنين، وفخر البنين آباؤهم» (أم 17: 6). فمن مراحم الرب على المؤمن أن يكلله بالبيت المبارك حيث الزوجة الفاضلة، وحيث يفتخر الأبناء بالآباء، ويُتوَّج الشيوخ بالأحفاد.

(4) إكليل جمال الشيبة: من مراحم الرب أنه يمنح المؤمن إكليل الجمال بتقواه في شبابه وفي شيبته، كما قال سليمان الحكيم: «تاجُ جمالٍ شَيْبَةٌ توجد في طريق البر» (أم 16: 31).

(5) إكليل البر: وهو الذي يُنعم الله به على المجاهدين في خدمة الملكوت، الذين يحبون مجيء المسيح ثانيةً، من أمثال الرسول بولس الذي قال: «فإني أنا الآن أُسكب سكيباً، ووقت انحلالي قد حضر. قد جاهدتُ الجهاد الحسن. أكملت السعي. حفظت الإيمان. وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل. وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً» (2تي 4: 6-8).

(6) إكليل الحياة: وهو الذي يُنعم الله به على كل من يحب الرب ويحتمل التجربة التي يسمح له بها، مثل أيوب الذي قال: «الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً.. أالخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل؟» (أي 1: 21 و2: 10). ويطوِّب الوحيُ

أيوبَ وأمثاله بالقول: «طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبونــه» (يــع 1: 12).

وهناك خطورة ضياع أكاليلنا إن نحن أخللنا بشروط الاحتفاظ بها، ولذلك حذَّر المسيح ملاك كنيسة فيلادلفيا بقوله: «هــا أنــا آتــي سريعاً. تمسَّك بما عندك لئلا يأخذ أحدٌ إكليلك» (رؤ 3: 11). وهذا معناه أن الله يكلِّف شخصاً آخر ليقوم بالعمل الذي تقاعس المؤمن عن القيام به، لأنه لن يترك عمله ناقصاً. وهو يمنح الإكليل الذي كان سيناله المتقاعس للشخص الذي سيقوم بالعمل.

أما امتياز الحصول على الإكليل فهو الشرف الذي سنناله عندما نلقيه عند قدمي المسيح يوم نلاقيه، كما قيل عن الأربعة والعشــرين شيخاً، الذين يمثلون كنيستي العهدين القديم والجديد: «يخرُّ الأربعة والعشرون شيخاً قدام الجالس على العرش، ويسجدون للحي إلــى أبــد الآبدين، ويطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين: أنت مستحقٌ أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقت كــل الأشــياء، وهي بإرادتك كائنةٌ وخُلقت» (رؤ 4: 10، 11). فلنتمسك بالإكليل المعطى لنا، ليكون لنا شرف طرحه بكل شكر وعرفــان عنــد قــدمي المسيح الذي يستحق المجد والكرامة والقدرة.

5 - بركة الشبع والتجديد: «الذي يُشبِع بالخير عمرك، فيتجدَّدُ مثلَ النسر شبابك» (آية 5).

(أ) الله يُشبع: يبارك المرنم الرب لأنه يشبعه ويمنحه كل شيء بسخاء ووفرة وغنى بحسب غناه في المجد (في 4: 19). وهذا ما اكتشفه الابن الضال في الكورة البعيدة، فقد توهَّم أنه في البُعد عن أبيه يعيش حياته كيف يشاء، وينفق كما يريد. ولكن الاختبار المــر في البلد البعيد علَّمه أن في البُعد عن أبيه جوعاً وبؤساً، وأن الشبع الحقيقي لا يوجد إلا في بيت الأب، فقال: «كم من أجيرٍ لأبي يفضــل عنه الخبز وأنا أهلك جوعاً. أقوم وأذهب إلى أبي» (لو 15: 18). وما أن رآه أبوه حتى احتضنه بفرح وأقام له وليمة. وقد دفــع الابــن الضال الثمن غالياً ليتعلم الدرس الأساسي الذي نرجو أن نتعلمه نحن بدون أن نجوز الآلام التي جازها الابن الضال.

وليشرح لنا المسيح مفهوم الشبع السماوي قال إن ملكوت الله يشبه وليمة عرس أقامها الملك، ومنح كل حاضريها حُلَّة ملوكية تتناسب مع جلال المناسبة ومع عظمة المقام الملكي. وهو يعني أن إلهنا الصالح يُشبِع بالخير عمرنا، ويكسونا رداء البر وثوب الخــلاص (مــت 22: 1-14).

ولم يكتفِ المسيح بمجرد التعليم عن الشِّبع، بل أطعم خمسة آلاف جائع بخمس خبزات وسمكتين (يو 6: 1-15) ثم قال: «أنــا هــو خبز الحياة. من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو 6: 35). ولا زال الله يشبع المؤمنين روحياً وجسدياً، و«بركــة الرب هي تُغني، ولا يزيد (الله) معها تعباً» (أم 10: 22)، فيقولون لله: «أمامك شبع سرور، في يمينك نِعَم إلى الأبد» (مز 16: 11).

(ب) الله يُشبع بالخير: «يُشبِع بالخير عمرك». الخير هو ما يناسب احتياجاتنا، ويسدِّدها، فنقول: «الــرب راعــيَّ فــلا يعوزني شيء» (مز 23: 1). والخير هو ما يناسب طبيعة الله الخيِّرة، وهو الأغلى والأفضل، يمنحه الله للمؤمنين لأنهم الأغلى والأفضل لديه. ويشهد داود لذلك بقوله: «كنتُ فتى وقد شختُ، ولم أرَ صدِّيقاً تُخلِّي عنه، ولا ذرية له تلتمس خبزاً» (مز 37: 25).

(1) الخير الأسمى هو خلاصه: قال المسيح: «هئنذا واقفٌ على الباب وأقرع. إن سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ 3: 20). فهو يُشبعنا بشخصه الكريم عندما يدخل قلوبنا، فيخلِّصنا من خطايانا. وقد وصف المرنم أحــوال النفس المكبَّلة بقيود الخطية والذل، فقال: «لأنه أشبع نفساً مشتهيةً، وملأ نفساً جائعةً خبزاً. الجالسين في الظلمة وظلال المــوت، مــوثقين بالذل والحديد، لأنهم عصَوْا كلام الله وأهانوا مشورة العلي، فأذلَّ قلوبهم بتعبٍ. عَثَروا ولا معين. ثم صرخوا إلى الــرب فــي ضــيقهم فخلَّصهم من شدائدهم» (مز 107: 9-13). أشبعهم بأن خلَّصهم وحررهم. وعندما يدخل المسيح القلب نقول: «أمــا أنــا فبــالبرِّ أنظــر وجهك. أشبع إذا استيقظتُ بشَبَهك» (مز 17: 15). فنبدأ يومنا بالصلاة والحديث إلى الله فتشبع أرواحنا. وفي اليوم الأخير يُشبعنا بكمــال خلاصه عندما يقيمنا من الموت لنتمتع بنور وجهه إلى الأبد.

(2) الخير الأسمى هو كلمته: كلمة الله تُشبع القلب الجائع، كما قال المرنم: «يُروَوْن من دسم بيتك، ومــن نهــر نِعَمــك تسقيهم» (مز 36: 8)، «ما أحلى قولك لحنكي. أحلى من العسل لفمي» (مز 119: 103)، وكما قال المسيح: «الكلام الذي أكلِّمكم به هو روح وحياة» (يو 6: 63). وقال النبي إرميا: «وُجد كلامك فأكلتُه، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي، لأني دُعيتُ باسمك يــا رب إلــه الجنود» (إر 15: 16).

(3) الخير الأسمى هو تسبيحه: «كما من شحمٍ ودسم تَشبَع نفسي، وبشفتَيْ الابتهاج يسبِّحك فمي» (مز 63: 5). يشبع المؤمن بالترتيل المستمر على الأرض، ويكتمل شبعه في السماء بالترنيم الدائم. «يقودك الرب على الدوام، ويُشبِع في الجدوب نفسك، وينشِّط عظامك، فتصير كجنَّةٍ ريّا، وكنبع مياهٍ لا تنقطع مياهه» (إش 58: 11).

(ج) الله يجدد الشباب: «فيتجدَّد مثلَ النسر شبابُك». يشبع الله المؤمن بالخير فيتجدد شبابه، ويكون مثل النسر الذي يحلِّق عالياً. وليس المقصود هنا أن النسر يجدد شبابه، لأن النسر يموت، لكن المقصود هو قوة النسر وارتفاع تحليقه. هناك شباب يحلّقون في آفاق الروح والفكر وهم في الثمانين من العمر، وهناك شيوخ في العشرينيات من أعمارهم. وصاحب الإيمان العميق والرجاء القوي هو الذي يتجدد شبابه، لأن ثقته في الرب تجعله يقول: «لا أخاف شراً لأنك أنت معي» (مز 23: 4)، ويتحقق معه قول أليهو عن عمل الرب مع التائب: «يترأف عليه ويقول: أطلقه عن الهبوط إلى الحفرة. قد وجدتُ فديةً. يصير لحمه أنضر من لحم الصبي، ويعود إلى أيام شبابه» (أي 33: 24، 25).

ومن أمثلة الشباب المتجدد كليم الله موسى الذي مات في عمر المئة والعشرين، ويصفه الوحي بأنه لم تكل عينُه ولا ذهبت نضارته (تث 34: 7) مع أن حياته كانت عامرة بالمسؤوليات الثِّقال، ولكن الرب أشبعه بالخير فتجدد شبابه. ومثله كالب بن يفُنَّة الذي قال عن نفسه: «الآن فها قد استحياني الرب.. والآن فها أنا اليوم ابن خمس وثمانين سنة، فلم أزل اليوم متشدِّداً كما في يوم أرسلني موسى. كما كانت قوتي حينئذ هكذا قوتي الآن للحرب وللخروج وللدخول» (يش 14: 10، 11).

(1) يرتفع المؤمن كالنسر: كما قيل: «أما منتظرو الرب فيجدِّدون قوة، يرفعون أجنحةً كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يُعْيُون» (إش 40: 31). يجدد الرب شباب المؤمن فيصير كالنسر الذي يرفع أجنحته ويطير عالياً، وقد ارتفعت عيناه إلى الأمور الروحية العالية، فيرتقي ويسمو في النعمة وفي معرفة الرب.

(2) يعلّم المؤمن غيره كما يفعل النسر: «كما يحرِّك النسر عشَّه وعلى فراخه يرفُّ، ويبسط جناحيه ويأخذها، ويحملها على مناكبه، هكذا الرب» (تث 32: 11، 12). يعلّم النسر فراخه الطيران بأن يهز عشَّه المبطن بالريش والمدعَّم بالأشواك، فتضايق الأشواك الفراخ الصغيرة، فتقفز متألمة وتبدأ في استخدام أجنحتها. وعندما تقفز أكثر تسقط من العش، فيسرع النسر الكبير ليحملها ويعيدها إلى العش لتستريح، ثم يُعيد ما أن سبق وفعله. ومرة تلو الأخرى تتعلم النسور الصغيرة استخدام أجنحتها للطيران وتترك العش. والمؤمن يشبه النسر الصغير في أن آلام الزمان الحاضر تعلّمه أن يطير إلى آفاق روحية أعلى، كما أنه يجب أن يشبه النسر الكبير في أنه يدرِّب غيره على السير في طريق خدمة الرب، كما قال الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس: «ما سمعتَه مني بشهودٍ كثيرين أودِعه أُناساً أمناء، يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضاً» (2تي 2: 2).

دعونا نشبع بخلاص الرب، فيتجدد شبابنا، ونصير نسوراً للرب.

ثالثاً - رحمة الله
(آيات 6-12)

حدَّث المرنم نفسه عن بركات الرب، وطلب منها أن تتغنَّى بمراحمه، فهي أكثر من أن تُعَد أو تُحصى، وقد قال: «ما أكرم أفكارك يا الله عندي! ما أكثر جملتها! إن أُحْصِها فهي أكثر من الرمل» (مز 139: 17، 18). وهو يعزو إحسانات الرب عليه إلى الرحمة الإلهية وحدها، ويطلق عليها أربع صفات:

1- رحمة منصفة: «الرب مجري العدل والقضاء لجميع المظلومين» (آية 6). من مراحم الرب على المؤمنين أنه باستمرار ينصفهم من أعدائهم، كما أنصف داود من الملك شاول، فقال داود للملك: «فيكون الرب الديّان، ويقضي بيني وبينك، ويرى ويحاكم محاكمتي، وينقذني من يدك» فأجاب الملك: «الرب يجازيك خيراً.. والآن فإني علمتُ أنك تكون ملكاً وتثبُت بيدك مملكة إسرائيل» (1صم 24: 15، 19، 20).

قد يبدو لنا أن الظلم قد انتصر، لكن هذا الانتصار لا يمكن أن يستمر، لأن الرب «مُجري العدل والقضاء» اليوم، على أرضنا، لجميع المظلومين. «يقوم عن يمين المسكين ليخلِّصه من القاضين على نفسه» (مز 109: 31). «يقضي بين الأمم وينصف لشعوبٍ كثيرين» (إش 2: 4)، فيقولون: «الرب قاضينا. الرب شارعنا. الرب ملكنا، هو يخلِّصنا» (إش 33: 22). عندما وقف المسيح أمام

بيلاطس قال له الحاكم بكبرياء: «ألستَ تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟» فأجابه بكل الحق الذي يحـررِّ الـنفس مـن الخوف: «لم يكُن لك عليَّ سلطانٌ البتة لو لم تكن قد أُعطيتَ من فوق» (يو 19: 10، 11). ولم تنتهِ حياة المسيح بصلبه يـوم الجمعـة، لكنه قام وغلب الموت وأنار لنا الحياة والخلود. وكل من يتحد بالمسيح كغصنٍ في كرمة ينال بركةً وحياة أبديتين.

2- رحمة مُعلِنـة: «عرَّف موسى طرقه وبني إسرائيل أفعاله» (آية 7). استجاب الله صلاة موسى: «إن كنتُ قد وجدتُ نعمـةً فـي عينيك فعلِّمني طريقك حتى أعرفك، لكي أجد نعمةً في عينيك» (خر 33: 13) فعرَّفه الرب طرق معاملاته مع شعبه، وقال له: «الـرب إلهٌ رحيم ورؤوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء» (خر 34: 6). ومن رحمة الله علينا أنه يعلن ذاته لنا، لأننا عـاجزون عـن معرفته بقوتنا الذاتية وبعقولنا المحدودة. قال «أبو الفيض ذو النون» المتصوِّف المصري (859م): «عرفتُ ربي بربي، ولولا ربـي مـا عرفتُ ربي». ربما تعرف بعض الحقائق عن إنسان بملاحظة تصرفاته، أو بالقراءة عنه، ولكنك لن تعرفه شخصياً إلا بـالاقتراب منـه ومعاشرته، وبالحديث معه ومناقشته، كما قال الرسول بولس: «أربح المسيح وأوجد فيه.. لأعرفه وقوة قيامته وشـركة آلامـه، متشـبِّهاً بموته، لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات. ليس أني قد نلتُ أو صرت كاملاً، ولكني أسعى لعلّي أدرك الذي لأجلـه أدركنـي أيضـاً المسـيح يسوع» (في 3: 8–12). صحيحٌ أننا نعرف عن الله بملاحظة خليقته العظيمة المنظمة، ولكننا لن نعرفه معرفة شخصـية إلا إن عرَّفنـا بنفسه.

أما كمال المعرفة بالله فقد تمَّ في المسيح، الطريق والحق والحياة (يو 14: 6). لقد كلَّم الله الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيـرة، ولكنه كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي هو بهاء مجده، ورسم جوهره، فجاء فيه الإعلان الكامل الذي طالما تنبأ الأنبياء عنـه، فهو «عمانوئيل الله معنا.. الله ظهر في الجسد.. الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا، ورأينا مجده، مجداً كما لوحيدٍ مـن الآب، مملـوءاً نعمـة وحقاً.. الله لم يره أحدٌ قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (عب 1: 1–3 ومت 1: 23 و1تـي 3: 16 ويـو 1: 14، 18).

3 - رحمـة غـافرة: «الرب رحيم ورؤوف، طويل الروح وكثير الرحمة. لا يحاكم إلى الأبد ولا يحقد إلى الدهر. لم يصـنع معنـا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا» (آيات 8–10). قال له نحميا: «أنت إلهٌ غفورٌ وحنّان ورحيمٌ، طويل الروح وكثير الرحمة» (نح 9: 17). لهذا دعا النبي يوئيل شعبه: «ارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوفٌ رحيم، بطيء الغضب وكثير الرأفة» (يوئيل 2: 13). وهـو في رحمته «لا يشاء أن يهلك أناسٌ، بل أن يُقبِل الجميع إلى التوبة» (2بط 3: 9) وقال: «حيٌّ أنا يقول السيد الرب، إني لا أُسـرُّ بمـوت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجِعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة. لماذا تموتون؟» (حز 33: 11). وإذا عاقب علـى خطإٍ فهو عقاب الأب الحريص على سلامة ابنه، وهو القائل: «لأني لا أخاصم إلى الأبد، ولا أغضب إلى الدهر» (إش 57: 16)، «لأني رؤوف، يقول الرب. لا أحقد إلى الأبد» (إر 3: 12). لذلك قال له المرنم: «إن كنتَ تراقب الآثام يا رب يا سيد، فمن يقف؟ لأن عنـدك المغفرة. لكي يُخاف منك» (مز 130: 3، 4).

هناك آباء يصفحون عن أبنائهم عندما يعتذرون لهم عن خطئهم، ولكن عندما يرتكب الابن خطأً آخر يوبخه الأب علـى الخطـأين: الجديد والقديم. وهكذا يفعل بعض الأزواج عندما يخلطون موضوع الخلاف الجديد بالقديم.. لكن الله الرحيم لا يحاكم إلى الأبد، لأنه يغفر وينسى. «مَن هو إلهٌ مثلُك، غافرٌ الإثم، وصافحٌ عن الذنب لبقية ميراثه.. فإنه يُسرُّ بالرأفة» (مي 7: 18). وهو لا يصنع معنـا حسـب آثامنا، بل «إن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً. لن يقدر أن ينكر نفسه» (2تي 2: 13). توجد طمأنينة في الغفران الإلهي، فعندما نعترف له يغفر لنا ولا يعود يذكر خطايانا. «يا أولادي، أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا. وإن أخطأ أحدٌ فلنا شفيع عند الآب: يسوع المسيح البـار، وهو كفارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً» (1يو 3: 1، 2).

4 - رحمـة بـلا حـدود: «مثل ارتفاع السموات عن الأرض قويت رحمته على خائفيه. كبُعد المشرق من المغرب أبعد عنا معاصينا» (آيتا 11، 12). وليس خائفوه هم المرتعبين من جبروته، بل هم الأتقياء العاملون بوصاياه، الخاضعون لسلطانه بكل محبة، لأنـه «الإلـه الحكيم الوحيد، مخلِّصنا، له المجد والعظمة والقدرة والسلطان، الآن وإلى كل الدهور» (يه 25). هؤلاء الأتقياء يقولون مع المـرنم: «لأن رحمتك قد عظُمت إلى السماوات، وإلى الغمام حقك» (مز 57: 10). وقال الملك حزقيا: «فإنك طرحتَ وراء ظهرك كل خطاياي» (إش 38: 17). إنه يغفر خطايانا، ويُبعِدها عنا إبعاداً كاملاً بحسب الرحمة اللانهائية، ويقول: «أنا أنا هـو المـاحي ذنوبـك لأجـل نفسـي، وخطاياك لا أذكرها.. قد محوتُ كغيمٍ ذنوبك، وكسحابة خطاياك. ارجع إليَّ لأني فـديتك» (إش 43: 25 و44: 22). فنقـول: «يعـود يرحمنا، يدوس آثامنا، وتُطرح في أعماق البحر جميعُ خطاياهم» (مي 7: 19) لأن المسيح سترها بدمه الثمين. وما دام الرب غفر لنـا، يجب أن نغفر لأنفسنا وللآخرين أيضاً.

رابعاً - الحاجة إلى الله
(آيات 13-18)

في هذه الآيات يعلن المرنم حاجته إلى الإله الرحيم، لأنه يشعر بضعفه، ويذكر مراحمه العظيمة الماضية علـى الجيـل الماضـي، ومراحمه العظيمة القادمة على بني البنين.

1- ضعف الإنسان: «كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه، لأنه يعرف جبلتنا يذكر أننا تراب نحن. الإنسان مثـل العشب أيامه. كزهر الحقل كذلك يُزهر، لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون، ولا يعرفه موضعه بعد» (آيات 13–16). يحب الآباء البشريون أولادهم ويترأفون عليهم، رغم أنهم بشر خطاؤون. وعلاقة الله بالمؤمنين هي علاقة أبوّة نموذجية كاملة، تعرف ضعفهم، وتحنو علـيهم، لأنها تدرك طبيعتهم. «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه» (مت 7: 11). يقول الله: «هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنسـاك» (إش 49: 15). وعلَّمنا المسيح أن نبدأ صلواتنا بالقول: «أبانا الذي في السماوات» (مت 6: 9)، وصوَّر الآب السماوي وهو يستقبل ابنـه الضـال الراجع بقوله: «رآه أبوه فتحنن، وركض، ووقع على عنقه، وقبَّله» (لو 15: 20). لذلك قال داود: «إن أبي وأمي قد تركـاني، والـرب يضمُّني» (مز 27: 10).

هذا الإله الرؤوف يترأف علينا لأنه يعرف جبلتنا، ويعرف ضعف بشريتنا في مواجهة مهاجمات الشر، ويعرف طبيعتنـا الخاطئـة «لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا، بل مجرَّبٌ في كل شيء مثلنا، بلا خطية» (عب 4: 15). و هو يذكر أننا تراب، فقد «جبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسَمة حياة، فصار آدمُ نفساً حية» (تك 2: 7). قال أيوب: «الإنسـان مولـود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً. يخرج كالزهر ثم ينحسم، ويبرح كالظل ولا يقف» (أي 14: 1، 2)، وقال المرنم: «ذكَر أنهم بشر. ريحٌ تذهب ولا تعود» (مز 78: 39) وصلى: «اذكُر كيف أنا زائل. إلى أي باطل خلقت جميع بني آدم؟» (مز 89: 47). صحيحٌ أن «كـل جسدٍ عُشب، وكل جماله كزهر الحقل. ييبس العشب. ذبُل الزهر لأن نفخة الرب هبَّت عليه. حقـاً الشـعب عُشـب» (إش 40: 6، 7). ووصف كليم الله موسى الإنسان بقوله: «بالغداة كعشبٍ يزول. بالغداة يزهر فيزول. عند المساء يُجزُّ فييبس» (مز 90: 5، 6). فنحن من تراب وإلى تراب نعود، ونسمة الله داخلنا هي العنصر الإلهي الذي يُحيينا ويجعلنا نتطلع إلى أعلى، إلى الخالق. لكن التـراب فينـا هـو العنصر الأرضي الذي يجذبنا إلى أسفل، فيقول الإنسان منا: «حينما أريد أن أفعل الحسنى أجد الشرَّ حاضراً عندي.. ويحي أنا الإنسـان الشقي.. بذهني أخدم ناموس الله وبجسدي أخدم ناموس الخطية» (رو 7: 21، 24، 25). لكن شكراً لله، فإن نعمة الله بقوة الروح القـدس تمكِّن المؤمن أن يقول: «ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رو 8: 2).

وكثيراً ما يفتكر الإنسان أنه عظيم، عندما ينجح أو يغتني أو يكون صاحب نفوذ، فيعتقد أن سلطانه دائم. ولكنه كالعشب. وإن لم يكن ثباته من الرب، وإن لم يكن ثابتاً في المسيح، تنقلب كل موازينه، فتذريه الريح، فينتهي ولا يعرفه موضعه بعد، كمـا وصـف صـوفر النَّعماتي الإنسان الزائل بقوله لأيوب: «عينٌ أبصرته لا تعود تراه، ومكانه لن يراه بعد» (أي 20: 9).

2 - رحمة الله: «أما رحمة الله فإلى الدهر والأبد على خائفيه، وعدله على بني البنين، لحافظي عهده وذاكري وصـايا ليعملوهـا» (آيتا 17، 18).

(أ) رحمته نابعة من أبديته: يبيد الإنسان لأنه فانٍ، أما رحمة الله فلا نهاية لها لأنه أبدي أزلـي، لـذلك ينصـحنا المرنم: «لا تتكلوا على الرؤساء ولا على ابن آدم، حيث لا خلاص عنده. تخرج روحه فيعود إلى ترابه. في ذلك اليوم نفسـه تهلـك أفكاره. طوبى لمن إله يعقوب مُعينه، ورجاؤه على الرب إلهه» (مز 146: 3– 5). ويطمئن المؤمنون لأن رحمة الله الدائمـة هـي الصخرة التي عليها يستندون، فيقولون: «يا رب، ملجأً كنتَ لنا إلى دور فدور» (مز 90: 1). «أما أنت يا رب فإلى الدهر جـالسٌ، وذِكرك إلى دور فدور.. وأنت هو، وسنوك لن تنتهي. أبناء عبيدك يسكنون، وذريتهم تُثبَّت أمامـك» (مـز 102: 12، 27، 28). «الذرية تتعبَّد له. يُخبَّر عنه الجيل الآتي. يأتون ويخبرون ببرِّه شعباً سيُولد بأنه قد فعل» (مز 22: 30، 31).

(ب) رحمته نابعة من عهوده: تعهَّد الله لخائفيه بالرحمة، فقد قال في الوصايا العشر: «أصنع إحساناً إلى ألوفٍ من محبيَّ وحافظي وصاياي» (خر 20: 6)، وقال: «فاعلم أن الرب إلهك هو الله، الإله الأمين، الحـافظ العهـد والإحسـان للـذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل» (تث 7: 9). وهو أمين لعهوده، ولا تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذي يـتكلم

به (يش 23: 14). ووعد الله حافظي وصاياه بالعدل، وقال: «لأني أنا الرب محب العدل، مبغض المختلس بالظلم. وأجعل أجـــرتهم أمينة، وأقطع لهم عهداً أبدياً» (إش 61: 8).

خامساً ـ الكل يشكرون
(آيات 19-22)

الرب هو الملك الذي لا نهاية لملكه، وسلطانه سلطان أبدي. فلتسجد له كل الخليقة في شكر وخشوع.

1 - سبب الشكر: «الرب في السماوات ثبَّت كرسيَّه، ومملكته على الكل تسود» (آية 19). عرش الله ثابت في السماوات، حيث نورٌ وبهاء ومجد لا تغيير فيه. وهو الملك، صاحب السلطان في السماء وعلى الأرض. «قلب الملك في يد الرب كجداول مياه، حيثمـــا شـــاء يُميله» (أم 21: 1).. اعتقد إخوة يوسف أنهم تخلَّصوا منه بإلقائه في البئر وبيعه عبداً. لكن الرب أقامه على خزائن مصر (تك 45: 25-28). كما اعتقد شيوخ اليهود أنهم تخلَّصوا من المسيح بصلبه وموته ودفنه في القبر، لكن هكذا شبِّه لهم، فقد بُعث حياً في اليـــوم الثالـــث (أع 2: 24). واعتقل الملكُ هيرودس الرسول بطرس في السجن تمهيداً لقتله، ولكن الرب نجّاه ليذيع الأخبـــار المفرحـــة عـــن خـــلاص المسيح (أع 12: 11).

2 - المدعوون للشكر:

(أ) ملائكتـه: «باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوةً، الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه» (آية 20). ولعل المرنم قصـــد بالملائكة المقتدرين قوة الصفوفَ العليا من الملائكة، وهم أكثر الخلائق قوة، المستعدون دائماً لتنفيذ أوامر الرب، وهم الأكثر قدرةً علـــى تسبيح الخالق العظيم بسبب المكانة السامية التي منحها لهم، وبسبب تكليفه لهم بخدمته. ومنهم جبرائيل الملاك الذي بشَّر العـــذراء مـــريم بميلاد المسيح (لو 1: 26). وقد سمع النبي إشعياء تسبيحهم كجوقة هائلة تهتف: «قدوس. قدوس. قدوس ربُّ الجنود. مجـــده مـــلء كـــل الأرض» فاهتزَّت أساسات عتب الهيكل، وامتلأ دخاناً (إش 6: 3، 4).

(ب) خدَّامه: «باركوا الرب يا جميع جنوده، خدامَه، العاملين مرضاته» (آية 21). ولعل المرنم قصد بهم الصف الثـــاني مـــن الملائكة، وعددهم لا يُحصى، قيل عنهم: «ألوفٌ ألوفٌ تخدمه، وربواتٌ ربوات وقوفٌ قدامه» (دا 7: 10). هم جنوده الذين يرسلهم لعمل مرضاته، فهو «الصانع ملائكته رياحاً وخدّامه لهيب نار» (مز 104: 4)، وهم يحاربون حروب الرب، فقال النبي أليشـــع لتلميـــذه: «لا تخفْ، لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم» ففتح الرب عيني تلميذ النبي فأبصر الجبل مملوءاً خيلاً ومركبات نار حول أليشع (2مـــل 6: 16، 17). وهم يحاربون في صفّ المؤمنين فإن «ملاك الرب حالٌّ حول خائفيه وينجّيهم» (مز 34: 7) «لأنه يوصي ملائكته بك لكـــي يحفظوك في كل طرقك» (مز 91: 11) و«جميعهم أرواحٌ خادمة، مرسَلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب 1: 14). وهم مدعوون للتسبيح، كما رنَّم عددٌ كبير منهم في جوّ أرضنا هاتفين: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرَّة» (لـــو 2: 14).

(ج) جميع أعمالـه: «باركوا الرب يا جميع أعماله، في كل مواضع سلطانه. باركي يا نفسي الرب» (آية 22). فـــي ختـــام مزموره يعود المرنم إلى ما بدأ به، فهو كواحدٍ من خليقة الله يشترك مع كل الخليقة في الشكر والحمد والترتيل، مشاركاً كل خليقة الله في التسبيح، وهي التي تحدِّث بمجد الله وتخبر بعمل يديه (مز 19: 1). فيا كل مفديي الرب، باركوا الرب، واهتفوا: «أنت مستحقٌّ أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقتَ كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخُلقت» (رؤ 4: 11).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالرَّابِعُ

1 بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. يَا رَبُّ إِلَهِي قَدْ عَظُمْتَ جِدّاً. مَجْداً وَجَلاَلاً لَبِسْتَ. 2اللاَّبِسُ النُّورَ كَثَوْبٍ الْبَاسِـــطُ
السَّمَاوَاتِ كَشُقَّةٍ. 3الْمُسَقِّفُ عَلاَلِيَهُ بِالْمِيَاهِ. الْجَاعِلُ السَّحَابَ مَرْكَبَتَهُ. الْمَاشِي عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيحِ. 4الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَـــهُ
رِيَاحاً، وَخُدَّامَهُ نَاراً مُلْتَهِبَةً. 5الْمُؤَسِّسُ الأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلاَ تَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَـــدِ. 6كَسَـــوْتَهَا الْغَمْـــرَ
كَثَوْبٍ. فَوْقَ الْجِبَالِ تَقِفُ الْمِيَاهُ. 7مِنِ انْتِهَارِكَ تَهْرُبُ، مِنْ صَوْتِ رَعْدِكَ تَفِرُّ. 8تَصْعَدُ إِلَى الْجِبَالِ. تَنْزِلُ إِلَى الْبِقَاعِ
إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَسَّسْتَهُ لَهَا. 9وَضَعْتَ لَهَا تُخُماً لاَ تَتَعَدَّاهُ. لاَ تَرْجِعُ لِتُغَطِّيَ الأَرْضَ.

10الْمُفَجِّرُ عُيُوناً فِي الأَوْدِيَةِ. بَيْنَ الْجِبَالِ تَجْرِي. 11تَسْقِي كُلَّ حَيَوَانِ الْبَرِّ. تَكْسِرُ الْفِرَاءُ ظَمَأَهَا. 12فَوْقَهَا
طُيُورُ السَّمَاءِ تَسْكُنُ. مِنْ بَيْنِ الأَغْصَانِ تُسَمِّعُ صَوْتاً. 13السَّاقِي الْجِبَالَ مِنْ عَلاَلِيهِ. مِنْ ثَمَرِ أَعْمَالِكَ تَشْبَعُ الأَرْضُ.
14الْمُنْبِتُ عُشْباً لِلْبَهَائِمِ، وَخُضْرَةً لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ، لإِخْرَاجِ خُبْزٍ مِنَ الأَرْضِ، 15وَخَمْرٍ تُفَرِّحُ قَلْبَ الإِنْسَانِ لإِلْمَاعِ
وَجْهِهِ أَكْثَرَ مِنَ الزَّيْتِ، وَخُبْزٍ يُسْنِدُ قَلْبَ الإِنْسَانِ. 16تَشْبَعُ أَشْجَارُ الرَّبِّ، أَرْزُ لُبْنَانَ الَّذِي نَصَبَهُ، 17حَيْثُ تُعَشِّشُ
هُنَاكَ الْعَصَافِيرُ. أَمَّا اللَّقْلَقُ فَالسَّرْوُ بَيْتُهُ. 18الْجِبَالُ الْعَالِيَةُ لِلْوُعُولِ. الصُّخُورُ مَلْجأٌ لِلْوِبَارِ.

19صَنَعَ الْقَمَرَ لِلْمَوَاقِيتِ. الشَّمْسُ تَعْرِفُ مَغْرِبَهَا. 20تَجْعَلُ ظُلْمَةً فَيَصِيرُ لَيْلٌ. فِيهِ يَدِبُّ كُلُّ حَيَوَانِ الْوَعْرِ.
21الأَشْبَالُ تُزَمْجِرُ لِتَخْطُفَ، وَلِتَلْتَمِسَ مِنَ اللهِ طَعَامَهَا. 22تُشْرِقُ الشَّمْسُ فَتَجْتَمِعُ، وَفِي مَآوِيهَا تَرْبِضُ. 23الإِنْسَانُ
يَخْرُجُ إِلَى عَمَلِهِ وَإِلَى شُغْلِهِ إِلَى الْمَسَاءِ.

24مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلَّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ. مَلآنَةٌ الأَرْضُ مِنْ غِنَاكَ. 25هذَا الْبَحْرُ الْكَبِيرُ الْوَاسِعُ
الأَطْرَافِ. هُنَاكَ دَبَّابَاتٌ بِلاَ عَدَدٍ. صِغَارُ حَيَوَانٍ مَعَ كِبَارٍ. 26هُنَاكَ تَجْرِي السُّفُنُ. لَوِيَاثَانُ هذَا خَلَقْتَهُ لِيَلْعَبَ فِيهِ.
27كُلُّهَا إِيَّاكَ تَتَرَجَّى لِتَرْزُقَهَا قُوتَهَا فِي حِينِهِ. 28تُعْطِيهَا فَتَلْتَقِطُ. تَفْتَحُ يَدَكَ فَتَشْبَعُ خَيْراً. 29تَحْجُبُ وَجْهَكَ فَتَرْتَاعُ.
تَنْزِعُ أَرْوَاحَهَا فَتَمُوتُ، وَإِلَى تُرَابِهَا تَعُودُ. 30تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ. وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ.

31يَكُونُ مَجْدُ الرَّبِّ إِلَى الدَّهْرِ. يَفْرَحُ الرَّبُّ بِأَعْمَالِهِ. 32النَّاظِرُ إِلَى الأَرْضِ فَتَرْتَعِدُ. يَمَسُّ الْجِبَالَ فَتُدَخِّنُ.
33أُغَنِّي لِلرَّبِّ فِي حَيَاتِي. أُرَنِّمُ لإِلهِي مَا دُمْتُ مَوْجُوداً، 34فَيَلَذُّ لَهُ نَشِيدِي وَأَنَا أَفْرَحُ بِالرَّبِّ. 35لِتُبَدِ الْخُطَاةُ مِنَ
الأَرْضِ، وَالأَشْرَارُ لاَ يَكُونُوا بَعْدُ. بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. هَلِّلُويَا!

تسبيح إله الخليقة

في مزمور 103 سبَّح المرنم إله النعمة والفداء، وفي مزمور 104 يسبِّح إله الخليقة. ويبدأ المزموران وينتهيان بعبارة «باركي يا نفسي الرب» لنحثَّ نفوسنا على الشكر، ونحضّ الآخرين على تسبيح الخالق، رب الفداء. ويتحدث مزمورنا عن الخالق الذي يُشبع خليقته بالخير، فترفع القلوب له التسبيح لأنه يهتم بخليقته ويدبِّر لها كل ما تحتاجه، فيهتف التقي: «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء.. إنما خير ورحمة يتبعانني كل أيام حياتي» (مز23). ويدعونا مزمورنا لأن نرفع عيوننا إلى أعلى من حيث يأتي عوننا، فننتعش بالرب ونفرح به، وتصبح حياتنا حياة نصرة ورفعة به، ويزيد اقترابنا منه.

هذا المزمور الذي يسبح إله الخليقة هو نظم شعري للأصحاح الأول من سفر التكوين، فهو يتحدث عن الأيام الستة التي خلق الله فيها كل شيء:

في اليوم الأول خلق الله النور (تك 1: 3-5) وهو ما يقوله المرنم في الآية 2أ.

وفي اليوم الثاني خلق الجَلَد، أي القبة الزرقاء، وجه السماء المنظور (تك 1: 6-8) وهو ما يقوله المرنم في الآية 2ب-4.

وفي اليوم الثالث خلق الرب الأرض والشجر (تك 1: 9، 10) وهو ما يقوله المرنم في الآيات 5-9.

وفي اليوم الرابع خلق الله الشمس والقمر والنجوم (تك 1: 14-19) وهو ما يقوله المرنم في الآيات 19-23.

وفي اليوم الخامس خلق الله الأسماك والطيور (تك 1: 20-23) وهو ما يقوله المرنم في آيتي 25، 26.

وفي اليوم السادس خلق الله الحيوان ثم الإنسان (تك 1: 24-28) وهو ما يقوله المرنم في الآيات 21-24.

ودبر الله لهذه الخليقة جميعها طعامها (تك 1: 29-31) وهو ما يقوله المرنم في الآيات 27-30.

ويشبه مزمورنا أنشودة الملك المصري القديم أخناتون (1370-1353 ق م) الذي كتب قصيدته يسبح الإله الواحد الذي رمز له بقرص الشمس، وتحدث فيها عن طعام الحيوان (كما في آيات 10-12 من مزمورنا)، وعن حيوانات الليل والنهار (كما في الآيات 20-23)، وعن السفن في البحار (كما في آيتي 25، 26). وتذكر قصيدة أخناتون أن الحياة والموت هما بأمره (كما في آيات 27-30). ورغم ما بين القصيدة ومزمورنا من تشابه، إلا أن المزمور يتحدث عن خالق الشمس رب العناية، الذي لم يدركه أخناتون، ولم يستطع أن يرى مَن وراء الشمس، ولم يدرك أنه لا منفعة تحت الشمس. أما نحن فنشكر الرب الذي أنارنا بكلمته المقدسة التي

كتبها أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس (2بط 1: 21)، ليرفع أفكارنا إلى خالق الشمس والقمر والنجوم، وجابل الإنسان ومدبر أموره، وقائده إلى الأبدية السعيدة، فيقول: «عرَّفتني سبل الحياة وستملأني سروراً مع وجهك» (أع 2: 28).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – عمل إله الخليقة (آيات 1–23)

ثانياً– تأمل إله الخليقة (آيات 24–30)

ثالثاً – عبادة إله الخليقة (آيات 31–35)

أولاً ـ عمل إله الخليقة
(آيات 1-23)

1 – عمل الإله الجليل: (آيات 1–3).

(أ) **جليل في عظمته:** «باركي يا نفسي الرب. يا رب إلهي قد عظُمت جداً» (آية1 أ). حث المرنم نفسه على أن يشكر الله وأن يتحدث بما فاض به قلبه من تعظيم وإجلال للرب الخالق ضابط الكل. فما أعظمه وما أعظم أعماله وحكمته العالية.

(ب) **جليل في نوره:** «مجداً وجلالاً لبست. اللابس النور كثوب» (آيتا 1ب، 2أ). يكتسي الرب بالمجد، ويحيط به الجلال والإكرام من ملائكته وقديسيه. وقد لبس النور كثوب لا ليحجب نفسه، بل ليعلن عن ذاته وجوهره بالوضوح والنقاء والجمال فإن «الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (1يو 1: 5).

(ج) **جليل في مكانته:** «الباسط السماوات كشُقَّة» (آية 2ب). الله ساكن السماوات العُلا، وقد بسط الجَلَد الأزرق كقماشة خيمة كبيرة متصلة بغير انفصال، فكأنها قصر عظيم، وعد محبيه أنه يجهِّز لهم فيه مكاناً، ومتى أعدَّه يأتي ويأخذهم، حتى حيث يكون هو يكونون هم أيضاً (يو 14: 1–4). وإلى أن يأتي جعل كل من يسكن في ستره يبيت في ظله (مز 91: 1).

(د) **جليل في حركته:** «المسقِّف علاليه بالمياه. الجاعل السحاب مركبته. الماشي على أجنحة الريح» (آية 3). كما ثبت الرب كل شيء بكلمة فمه ثبت المياه في السحب وكأنها سقف للأرض، وجعل السحاب المتصاعد من مياه البحار مركبة له، فكان يسير أمام شعبه «نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق» (خر 13: 21). وفي نهاية العالم «يبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير» (مت 24: 30). وهو الماشي على أجنحة الريح، وقد «هفَّ على أجنحة الرياح» (مز 18: 10). وقد سمع أبوانا الأوَّلان: «صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة» (تك 3: 8). وهو موجود في كل مكان، يسرع إلى معونة أولاده بقوة وسلطان على الطبيعة وعلى الظروف وعلى الصعاب وعلى الضيقات.

2 – عمل الإله الخالق: «الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة. المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد» (آيتا 4، 5). خلق الرب الملائكة أرواحاً خادمة، كالرياح في سرعتها، وكالنار في قوتها. وقد اقتُبست هذه الآية في عبرانيين 1: 7. وهم في محضره كل حين يسبحونه ويقدسون له (إش 6: 1–3). ويشترك الأتقياء معهم قائلين: «أنت هو الرب وحدك. أنت صنعت السماوات وسماء السماوات وكل جندها، والأرض وكل ما عليها، والبحار وكل ما فيها. أنت تحييها كلها، وجند السماء لك يسجد» (نح 9: 6). ولأن الرب إلهنا نار آكلة (عب 12: 29) فقد جعل خدّامه ناراً ملتهبة، متأهبين لتنفيذ أوامره في السماء والأرض.

3 – عمل الإله صاحب السلطان: «كسوتَها الغمر كثوب، فوق الجبال تقف المياه. من انتهارك تهرب، من صوت رعدك تفر. تصعد إلى الجبال، تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسسته لها. وضعت لها تخماً لا تتعداه. لا ترجع لتغطي الأرض» (آيات 6–9). في البدء كانت المياه تغطي وجه الأرض كما يغطي الثوب الجسد. وأمر الله: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك» (تك 1: 9). ولا تزال كل المياه تطيع صوت الرب الذي وضع لها حدوداً لا تتخطاها، ويقول الرب: «أنا الذي وضعت الرمل تخوماً للبحر فريضة أبدية لا يتعداها، فتتلاطم ولا تستطيع، وتعج أمواجه ولا تتجاوزها» (إر 5: 22) حتى لا تهلك الأرض كما وعد نوحاً وبنيه: «أقيم ميثاقي معكم.. لا يكون طوفان ليخرب الأرض» (تك 9: 11). وجعل الرب قوة المياه الجبارة في خدمة خليقته، فالماء الموجود في البحار والأنهار يتبخر فيصعد سحاباً، وينزل مصحوباً بصوت الرعد إلى أرضنا فيروي الجبال ويكسوها خضرة. وينزل جليداً يتحوَّل مياهاً تعود إلى منابعها، فتُخصِب الوديان وتنتج خيراً للإنسان والطير والحيوان.

4 – عمل الإله المعتني: (آيات 10–18).

هذا الإله العظيم الذي خلق كل حي يعتني بكل مخلوقاته، فقد قال المسيح: «انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟» (مت 6: 26).

(أ) **يروي العطاش:** «المفجِّر عيوناً في الأودية، بين الجبال تجري. تسقي كل حيوان البر، تكسر الفراء ظمأها» (آيتا 10، 11). يفجر الرب عيون مياه تجري بين الجبال، فتخرج من الصخور تسقي كل حيوان بري غير مستأنس كالفَراء (حُمُر الوحش)، كما تروي كل حيوان أليف، وتروي البشر، فيقول التقي: «أخرجت لهم ماء من الصخرة لعطشهم» (نح 9: 15). وكما يروي الرب عطشنا الجسدي بالماء يروي ظمأنا الروحي بالروح القدس (يو 7: 38، 39).

(ب) **يُسكن الطيور:** «فوقها طيور السماء تسكن. من بين الأغصان تُسمِّع صوتاً» (آية 12). «العصفور أيضاً وجد بيتاً، والسُّنونة عشاً لنفسها حيث تضع أفراخها. مذابحك يا رب الجنود ملكي وإلهي» (مز 84: 3). فتتغنى للإله المعتني.

(ج) **يشبع الجياع:** «الساقي الجبال من علاليه. من ثمر أعمالك تَشبع الأرض. المنبت عشباً للبهائم، وخُضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض، وخمرٍ تفرِّح قلب الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت، وخبزٍ يسند قلب الإنسان» (آيات 13–15). يمطر الله على الجبال العالية فترتوي الوديان وينمو العشب طعاماً للبهائم، وتنمو الحبوب لتكون خبزاً للإنسان تسد احتياجاته الأساسية، وتثمر الكروم فيكون عصيرها فرحاً يمتع الإنسان بالكماليات، فيسعد ويلمع وجهه. وفي نور العهد الجديد نفهم أن الخبز الحي هو المسيح الذي قال: «أنا هو خبز الحياة. من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو 6: 35، 51).

(د) **يهتم بالنبات والحيوان:** «تشبع أشجار الرب، أرزُ لبنان الذي نصبه. حيث تعشِّش هناك العصافير. أما اللقلق فالسَّرو بيته. الجبال العالية للوعول، الصخور ملجأٌ للوِبار» (آيات 16–18). يضمن الرب الحياة لكل مخلوقاته، صغيرة وكبيرة، فيهيئ لها سكنها، فأشجار الرب العالية مثل أرز لبنان تشبع من الشمس والماء والتربة الخصبة، وتسكنها العصافير. أما اللقلق، وهو طائر طويل المنقار والساقين، أبيض الريش، أسود الجناحين فقد وجد بيتاً له في أشجار السرو الضخمة. ولم تعدم الوعول مخبأً، فوجدته في الجبال العالية. أما الوبار، ذلك الحيوان الذي يشبه الأرنب ويفوقه في جلده الثمين فقد قدمت له الصخور المأوى الآمن.

5 – عمل الإله المنظِّم: (آيات 19–23).

(أ) **نظام القمر والشمس:** «صنع القمر للمواقيت، الشمس تعرف مغربها» (آية 19). جعل الرب دورة الحياة تتناوب بين نهار تشرق الشمس فيه فتضيء وتدفئ، ثم تغيب فيظهر القمر ويعقب الليل النهار، ويعرف الناس بدايات الشهور، فتتم الأعياد وتُقام الاحتفالات. وحكم الرب الشمس وشروقها، كما عيَّن وقت غروبها، وحدد مواعيد ظهور القمر بحكمة. وثبت الاثنين في السماء ليرشد خليقته ويعلمهم الطاعة والمثابرة والنظام.

(ب) **نظام العمل والراحة:** «تجعل ظلمةً فيصير ليل، فيه يدب كل حيوان الوعر. الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها. تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض. الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء» (آيات 20–23). تشرق الشمس أو يطلع القمر، فيسعى كل حي في الأرض إلى رزقه، أو يأوي إلى مكان راحته من عناء يومه. ويعرض المرنم مفارقة بين خليقة الله، فحيوان الوعر والأشبال تجول ليلاً تلتمس طعامها، ثم تهجع نهاراً. أما الإنسان فيكد ويعمل يومه حتى يأتي المساء فيأوي إلى فراشه ليستريح.

ثانياً _ تأمل إله الخليقة
(آيات 24-30)

1 - انبهار: «ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمةٍ صنعتَ. ملآنةٌ الأرض من غناك. هذا البحر الكبير الواسع الأطراف، هناك دبابات بلا عدد، صغار حيوان مع كبار. هناك تجري السفن. لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه» (آيات 24–26). بعد أن عدَّد المرنم بعض أعمال الرب توقَّف يتأمل بانبهار عظمة صنع هذا الخالق الحكيم الذي فاقت قدرته وحكمته حدود عقلنا البشري. «ما أكرم أفكارك يا الله عندي. ما أكثر جملتها. إن أُحصها فهي أكثر من الرمل» (مز 139: 18). ويترنم كل تقي بسخاء الرب الذي يفيض على الأرض من

غناه فتمتلئ من جوده. وتنوَّعت مصادر هذا الغنى بخيرات على سطح الأرض أو في باطنها، وتعددت أشكالها وألوانها، وكلهـا لخدمة الإنسان الذي يجب أن يشكر مع يعقوب قائلاً: «صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صنعتها إلى عبدك» (تك 32: 10).

ويتأمل المرنم عظمة عالم البحار بما فيه من تنوع الأسماك والأحياء من صغار وكبار، فهناك الذي لا نراه بالعين المجـردة، وهنـاك لوياثان الضخم (أي التمساح). والله يرزقها كلها طعامها، فتمرح وتلهو سعيدة. وجعل البحر في خدمة الإنسان إذ يُخرِج منه قوتـاً ينـوِّع طعامه، كما جعله تسهيلاً لسفره ونقل حاجياته على السفن التي تحمل الناس والبضائع.

2 - انتظار: «كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه. تعطيها فتلتقط، تفتح يدك فتشبع خيراً» (آيتـا 27، 28). يعطـي الـرب بسخاءٍ ولا يعيِّر، ولكن الإنسان في طمعه وجشعه يحب أن يمتلك أكثر! ومن فضل الله أنه لا توجد في العـالم أزمـة فـي الطعـام أو الموارد الطبيعية، ولكن البشر يخلقون المشاكل بسوء التوزيع. أما في عالم الحيوان والأسماك والطيور فالأمر يختلـف، لأنـه متـروك للرب الذي يرزق في حينه بكفاية وعدل. ومع هؤلاء يهتف التقي: «كنت فتى وقد شخت، ولم أر صديقاً تُخُلِّي عنه ولا ذرية لـه تلتمس خبزاً» (مز 37: 25).

3 - خضوع: «تحجب وجهك فترتاع. تنزع أرواحها فتموت، وإلى ترابها تعود. ترسل روحك فتُخلَق وتجدد وجه الأرض» (آيتـا 29، 30). تحيا خليقة الله تحت سلطانه، وبإشراق نور وجهه ترى نوراً (مز 36: 9) ولها فيه وبه الحياة. فإن حجـب الله هـذا النـور يصير الظلام والخوف والتخبط والضياع. وقد يحس التقي في زمن الضيق أو الاضطهاد أو الارتداد أو المرض أن الرب قـد حجـب وجهه عنه. ولكن الأكيد أن خطية الخاطئ تحجب وجه الله عنه، كما يقول الوحي: «آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم، وخطايـاكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع» (إش 59: 2). وللرب سلطان الموت مثلما له سلطان الحياة، وهذا أمر طبيعي لأنه الخـالق، فعنـدما ينزع الروح يموت المخلوق، وعندما يرسل روحه يخلق ويجدد. خلق آدم من تراب ونفخ فيه فصار نفساً حية. وسلطانه على أرواحنـا دائم، ينزعها أو يجددها. وسلطانه على أجسادنا كسلطانه على أرواحنا، فقد أقام المسيح لعازر من بين الأموات بعد أربعة أيام (يو 11) وأقام ابن أرملة نايين وهو في طريقه إلى المقابر (لو7) وأقام ابنة يايرس في الغرفة التي ماتت فيها (مر 5). ولا يـزال يقـيم مـوتى الخطية ويجدد الخاطئ الهالك، ويغفر خطاياه، كما جدد المرأة السامرية (يو 4) والمرأة الخاطئة (لو 7) ومتى العشار (مر 2) وشـاول الطرسوسي (أع 9). ونحن ننتظر حياة مجيدة عند مجيء المسيح ثانية من السماء، فإن الرب نفسه سوف ينزل من السماء بهتاف، فيقوم أولاً الأموات المؤمنون بالمسيح، فيخطفهم مع الأحياء المؤمنين في السحب لملاقاته في الهواء، وهكذا نكون كل حين مع الرب (1تـس 4: 15-17).

ثالثاً _ عبادة إله الخليقة
(آيات 31-35)

1 – نعبده بسبب مجده: «يكون مجد الرب إلى الدهر. يفرح الرب بأعماله. الناظر إلى الأرض فترتعد. يمس الجبال فتدخِّن» (آيتا 31، 32). مجده باقٍ إلى الأبد، وملكوته لن يزول، ونحن نتعبَّد له ونحبه ونتكل عليه لأنه أحبنا فضلاً، وأحبنا أولاً (هو 14: 4، 1يـو 4: 19). وهو يفرح بعمل يديه، صانعي إرادته، الخاضعين لسلطانه، المقدِّرين لشريعته التي يصف الوحي نزولها بالقول: «وكان جبـل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جداً» (خر 19: 18).

2 – نعبده بالترنيم والفرح: «أغني للرب في حياتي، أرنم لإلهي ما دمت موجوداً. فيلذ له نشيدي، وأنا أفرح بـالرب» (آيتـا 33، 34). نعبده بالتسبيح ما دامت فينا نسمة حياة، وبهذا نقدم له ذبيحة حمد، ثمر شفاه معترفة باسمه (عب 13: 15). لن ينقطع تسبيحنا لـه في سمائه، فلنبدأه الآن، لأنه يحب تسبيحنا الذي يلذ له، ونحن نفرح به عندما يرد سبينا فنصير كالحالمين، وتمتلـئ أفواهنـا ضـحكاً وألسنتنا ترنماً (مز 126).

3 – نعبده لأنه الديان: «لتَبِد الخطاةُ من الأرض، والأشرار لا يكونوا بعد. باركي يا نفسي الرب، هللويا» (آية 35). تحتمل طلبة المرنم بإبادة الأشرار أن يهلك الخطاة بشرِّهم، فإن الشر يميت الشرير (مز 34: 21). وتحتمل معنى موتهم عن الخطية عنـد تـوبتهم طاعة للأمر الرسولي: «احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا» (رو 6: 11). وفي نور تعليم الإنجيـل يتشوَّق التقي أن يشرق الله بنوره على الخطاة فيتوبون لأنه «يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبِلـون» (1تـي 2: 4)، فتبارك نفوسنا الرب وتهتف: هللويا. سبِّحوا الرب!

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالْخَامِسُ

1 اِحْمَدُوا الرَّبَّ. ادْعُوا بِاسْمِهِ. عَرِّفُوا بَيْنَ الأُمَمِ بِأَعْمَالِهِ. 2غَنُّوا لَهُ. رَنِّمُوا لَهُ. أَنْشِدُوا بِكُلِّ عَجَائِبِهِ.
3افْتَخِرُوا بِاسْمِهِ الْقُدُّوسِ. لِتَفْرَحْ قُلُوبُ الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الرَّبَّ.
4اُطْلُبُوا الرَّبَّ وَقُدْرَتَهُ. الْتَمِسُوا وَجْهَهُ دَائِماً. 5اذْكُرُوا عَجَائِبَهُ الَّتِي صَنَعَ، آيَاتِهِ وَأَحْكَامَ فَمِهِ، 6يَا ذُرِّيَّةَ
إِبْرَاهِيمَ عَبْدِهِ، يَا بَنِي يَعْقُوبَ مُخْتَارِيهِ. 7هُوَ الرَّبُّ إِلَهُنَا. فِي كُلِّ الأَرْضِ أَحْكَامُهُ. 8ذَكَرَ إِلَى الدَّهْرِ عَهْدَهُ، كَلاَماً
أَوْصَى بِهِ إِلَى أَلْفِ دَوْرٍ، 9الَّذِي عَاهَدَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَقَسَمَهُ لإِسْحَاقَ، 10فَثَبَّتَهُ لِيَعْقُوبَ فَرِيضَةً وَلإِسْرَائِيلَ عَهْداً أَبَدِيّاً،
11قَائِلاً: «لَكَ أُعْطِي أَرْضَ كَنْعَانَ حَبْلَ مِيرَاثِكُمْ». 12إِذْ كَانُوا عَدَداً يُحْصَى قَلِيلِينَ وَغُرَبَاءَ فِيهَا. 13ذَهَبُوا مِنْ أُمَّةٍ
إِلَى أُمَّةٍ، مِنْ مَمْلَكَةٍ إِلَى شَعْبٍ آخَرَ. 14فَلَمْ يَدَعْ إِنْسَاناً يَظْلِمُهُمْ، بَلْ وَبَّخَ مُلُوكاً مِنْ أَجْلِهِمْ 15قَائِلاً: «لاَ تَمَسُّوا
مُسَحَائِي، وَلاَ تُسِيئُوا إِلَى أَنْبِيَائِي». 16دَعَا بِالْجُوعِ عَلَى الأَرْضِ. كَسَرَ قِوَامَ الْخُبْزِ كُلَّهُ. 17أَرْسَلَ أَمَامَهُمْ رَجُلاً. بِيعَ
يُوسُفُ عَبْداً. 18آذَوْا بِالْقَيْدِ رِجْلَيْهِ. فِي الْحَدِيدِ دَخَلَتْ نَفْسُهُ، 19إِلَى وَقْتِ مَجِيءِ كَلِمَتِهِ. قَوْلُ الرَّبِّ امْتَحَنَهُ. 20أَرْسَلَ
الْمَلِكُ فَحَلَّهُ. أَرْسَلَ سُلْطَانُ الشَّعْبِ فَأَطْلَقَهُ. 21أَقَامَهُ سَيِّداً عَلَى بَيْتِهِ، وَمُسَلَّطاً عَلَى كُلِّ مُلْكِهِ، 22لِيَأْسِرَ رُؤَسَاءَهُ
حَسَبَ إِرَادَتِهِ، وَيُعَلِّمَ مَشَايِخَهُ حِكْمَةً. 23فَجَاءَ إِسْرَائِيلُ إِلَى مِصْرَ، وَيَعْقُوبُ تَغَرَّبَ فِي أَرْضِ حَامٍ.
24جَعَلَ شَعْبَهُ مُثْمِراً جِدّاً، وَأَعَزَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ. 25حَوَّلَ قُلُوبَهُمْ لِيُبْغِضُوا شَعْبَهُ، لِيَحْتَالُوا عَلَى عَبِيدِهِ.
26أَرْسَلَ مُوسَى عَبْدَهُ، وَهَارُونَ الَّذِي اخْتَارَهُ. 27أَقَامَا بَيْنَهُمْ كَلاَمَ آيَاتِهِ، وَعَجَائِبَ فِي أَرْضِ حَامٍ. 28أَرْسَلَ ظُلْمَةً
فَأَظْلَمَتْ، وَلَمْ يَعْصُوا كَلاَمَهُ. 29حَوَّلَ مِيَاهَهُمْ إِلَى دَمٍ، وَقَتَلَ أَسْمَاكَهُمْ. 30أَفَاضَتْ أَرْضُهُمْ ضَفَادِعَ حَتَّى فِي مَخَادِعِ
مُلُوكِهِمْ. 31أَمَرَ فَجَاءَ الذُّبَّانُ وَالْبَعُوضُ فِي كُلِّ تُخُومِهِمْ. 32جَعَلَ أَمْطَارَهُمْ بَرَداً وَنَاراً مُلْتَهِبَةً فِي أَرْضِهِمْ.
33ضَرَبَ كُرُومَهُمْ وَتِينَهُمْ، وَكَسَّرَ كُلَّ أَشْجَارِ تُخُومِهِمْ. 34أَمَرَ فَجَاءَ الْجَرَادُ وَغَوْغَاءُ بِلاَ عَدَدٍ، 35فَأَكَلَ كُلَّ عُشْبٍ
فِي بِلاَدِهِمْ، وَأَكَلَ أَثْمَارَ أَرْضِهِمْ. 36قَتَلَ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِهِمْ، أَوَائِلَ كُلِّ قُوَّتِهِمْ، 37فَأَخْرَجَهُمْ بِفِضَّةٍ وَذَهَبٍ، وَلَمْ
يَكُنْ فِي أَسْبَاطِهِمْ عَاثِرٌ. 38فَرِحَتْ مِصْرُ بِخُرُوجِهِمْ لأَنَّ رُعْبَهُمْ سَقَطَ عَلَيْهِمْ.
39بَسَطَ سَحَاباً سَجْفاً، وَنَاراً لِتُضِيءَ اللَّيْلَ. 40سَأَلُوا فَأَتَاهُمْ بِالسَّلْوَى، وَخُبْزَ السَّمَاءِ أَشْبَعَهُمْ. 41شَقَّ
الصَّخْرَةَ فَانْفَجَرَتِ الْمِيَاهُ، جَرَتْ فِي الْيَابِسَةِ نَهْراً. 42لأَنَّهُ ذَكَرَ كَلِمَةَ قُدْسِهِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَبْدِهِ، 43فَأَخْرَجَ شَعْبَهُ
بِابْتِهَاجٍ، وَمُخْتَارِيهِ بِتَرَنُّمٍ. 44وَأَعْطَاهُمْ أَرَاضِيَ الأُمَمِ، وَتَعَبَ الشُّعُوبِ وَرِثُوهُ، 45لِكَيْ يَحْفَظُوا فَرَائِضَهُ وَيُطِيعُوا
شَرَائِعَهُ. هَلِّلُويَا!

العهد كما يحفظه الرب

هذا ثاني المزامير التاريخية الأربعة، وهي 78، 105، 106، 136. والمزموران 105 و106 مترابطان، فمزمورنا يتحدث عن أمانة الرب في حفظه للعهد، بينما مزمور 106 يتحدث عن عدم أمانة الإنسان في حفظ العهد. ويختم هذان المزموران الكتاب الرابع من سفر المزامير (وهو الجزء الذي بدأ بمزمور 90).

يتحدث مزمورنا عن أعمال الله العظيمة التي فعلها تنفيذاً لعهده مع خليله إبراهيم. وهو يشجع الراجعين من السبي، فإن كان الله قد أعطى الأرض لمجموعة من الرُحَّل في القديم لأنه وعد، فلا بد أن يحقق وعوده لشعبه العائد من بابل، في قوله: «الصغير يصير ألفاً، والحقير أمة قوية. أنا الرب في وقته أسرع به» (إش 60: 22). وهو مزمور شكر للرب الذي بارك شعبه، ويشبه في بدايته (آيات 1-15) ترنيمة داود عندما نقل تابوت عهد الرب من بيت عوبيد أدوم الجتي إلى أورشليم (1أي 16: 8-22).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – دعوة لنذكر الرب (آيات 1-7)

ثانياً – الرب يذكر عهده (آيات 8-15)

ثالثاً – حقق الرب عهده في يعقوب ويوسف (آيات 16-23)

رابعاً – حقق الرب عهده في موسى وهارون (آيات 24-45)

أولاً _ دعوة لنذكر الرب
(آيات 1-7)

1 – كيف نذكر الرب؟ (آيات 1-4).

(أ) **بالتسبيح لـه:** (آيتا 1، 2). يدعو المرنم شعبه لحمد الرب والدعاء باسمه والإعلان بالشهادة عن أعماله لجميع الأمم، وذلك بالترتيل له والإنشاد بكل عجائبه، كما رنم موسى وبنو إسرائيل بعد الخروج «أرنم للرب فإنه قد تعظم» (خر 15: 1) وكما رنمت دبورة (قض 5)، وكما طلب إشعياء: «احمدوا الرب. ادعوا باسمه. عرِّفوا بين الشعوب بأفعاله. ذكِّروا بأن اسمه قد تعالى. رنِّموا للرب لأنه قد صنع مفتخراً. ليكن هذا معروفاً في كل الأرض» (إش 12: 4، 5). ومن يستطيع السكوت عن الحمد وإذاعة أخبار عمل الله المفرحة معه؟ لا بد أن يهتف اللسان بالحمد، ويعلن أن الله أعطى بركة غير متوقَّعة، أو شفى من مرض، أو أنقذ من مأزق. إنه الرب «يهوه» دائم الوجود، الذي لا يتغير.

(ب) **بالفخر والفرح:** (آية 3). تعبُّد الذين يلتمسون الرب يملأ قلوبهم بالفرح، لأنهم يثقون أنه يستجيب لهم، كما قيل: «طلبتُ إلى الرب فاستجاب لي، ومن كل مخاوفي أنقذني» (مز 34: 4). وهو يرفع أفكارهم نحوه فيفتخرون باسمه القدوس، كما قال إشعياء للمؤمن التقي: «تبتهج بالرب. بقدوس إسرائيل تفتخر» (إش 41: 16). وهذا ما حدث مع أعضاء الكنيسة الأولى فقد «كانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة. وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب، مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب» (أع 2: 46، 47).

(ج) **بالتماس وجهه:** (آية 4). «اطلبوا.. التمسوا» بالفم والقلب فيتَّجه الإنسان بعقله وقلبه وإرادته للرب طالباً رضاه وعونه ونور وجهه. «اطلبوا الرب ما دام يوجد. ادعوه وهو قريب» (إش 55: 6). وما أسعدنا إن أطعنا أمر المسيح: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُملّ» (لو 18: 1). «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو 16: 24). إنه يعطي المعيي قدرة ولعديم القوة يكثِّر شدَّةً (إش 40: 29).

2 – ماذا نذكر للرب؟ (آيات 5-7).

(أ) **نذكر عجائبه وأحكامه:** (آية 5). «اذكر ما فعله الرب إلهك بفرعون» (تث 7: 18). لنذكر معجزة الخروج والأحكام التي أصدرها ضد فرعون قاسي القلب، ثم نفَّذها. وهل يمكن أن ننسى كم صنع الرب بنا ورحمنا؟ لا بد أن نذكر خروجنا من مصاعب لا مخرج منها بفضل محبته. «باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته.. الذي يفدي من الحفرة حياتك» (مز 103: 2، 4). اذكر معجزات شفائه وإنقاذه، وقُل له: «أحمدك من أجل أني قد امتزتُ عجباً. عجيبة هي أعمالك، ونفسي تعرف ذلك يقيناً» (مز 139: 14).

(ب) **نذكر اختياره:** (آية 6). لقد اختار إبراهيم ونسله، اختيار نعمة لا اختيار استحقاق «ولأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم، أخرجك بحضرته، بقوته العظيمة من مصر» (تث 4: 37). وقد اختار نسلاً روحياً لإبراهيم من كل شعب، فيؤمنون إيمان إبراهيم، ويتبعون الرب الذي تبعه إبراهيم. وما أصدق القول الرسولي: «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيَّنهم ليكونوا مشابهين صورة

ابنه.. والذين سبق فعيَّنهم فهؤلاء دعاهم أيضاً. والذين دعاهم فهؤلاء برَّرهم أيضاً. والذين بررهم فهؤلاء مجَّدهم أيضاً» (رو 8: 29، 30).

(ج) **نذكر ربوبيته:** (آية 7). هو رب شعبه الذي اختاره، كما أنه رب الأرض كلها، يُصدر أحكامه على الجميع، لأنه «ديان كل الأرض» (تك 18: 25). «فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا، متغاضياً عن أزمنة الجهل، لأنه أقام يوماً هو فيه مزمعٌ أن يدين المسكونة بالعدل برجلٍ قد عيَّنه، مقدِّماً للجميع إيماناً، إذ أقامه من الأموات» (أع 17: 30، 31).

ثانياً ـ الرب يذكر عهده
(آيات 8-15)

1 – عهد بوطن: (آيات 8–11).

(أ) **عهد مستمر:** (آية 8). يذكر الرب عهده لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم ولا ينساه، لأنه أوصى به إلى ألف دور، فهو «الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل» (تث 7: 9). يذكره إلى أن يحققه.

(ب) **عهد مؤكد:** (آيات 9–11).

(1) عاهد به إبراهيم: (آية 9). بأن قال له: «لنسلك أعطي هذه الأرض» (تك 12: 7) وكرر له الوعد مرات أخرى (تك 13: 14 و15: 18 و17: 2) وأقسم له بهذا (تك 22: 16).

(2) قسمه لإسحاق: (آية 9). وقال له: «لنسلك أعطي جميع هذه البلاد، وأفي بالقسم الذي أقسمتُ لإبراهيم أبيك» (تك 26: 3–5).

(3) ثبَّته ليعقوب: (آية 10). فقال له يوم كان مسافراً إلى بيت خاله لابان: «الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك» (تك 28: 13–15)، وكرر له الوعد بعد أن غيَّر اسمه إلى إسرائيل (تك 35: 9–12).

(ج) **نص العهد:** (آية 11). «كنعان حبل ميراثكم» فقد كانوا يقيسون الأرض بالحبل ويقسمونها به. فيكون المعنى أن كنعان نصيب ميراث نسل إبراهيم. وكما قسم لشعبه أرضاً اختارهم نصيباً له، كما قيل: «إن قسم الرب هو شعبه.. وجده.. أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة العين» (تث 32: 10).

2 – أصحاب العهد: (آيات 12–15).

(أ) **قليلون:** (آية 12أ). تظهر أمانة الله لعهده من أنه قدَّم وعداً بأرض متَّسعة لعدد قليل، كان سيزيده عدداً، وهذا ما قاله يعقوب عن أسرته: «أنا نفرٌ قليل» (تك 34: 30). وشعب الرب الحقيقي في كل وقت وفي كل العالم أقلية، ولكنه يقول لهم: «لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت» (لو 12: 32).

(ب) **مغتربون:** (آية 12ب، 13). ينتقلون من بلد إلى بلد، كما قيل: «بالإيمان إبراهيم لما دُعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيداً أن يأخذه ميراثاً، فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي. بالإيمان تغرَّب في أرض الموعد كأنها غريبة، ساكناً في خيام مع إسحاق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد بعينه» (عب 11: 8، 9).

(ج) **محروسون:** (آيتا 14، 15). لم يسمح الله لأحد أن يظلم هؤلاء الآباء، بل وبَّخ ملوكاً من أجلهم، فوبَّخ فرعون (تك 12: 17) وأبيمالك (تك 20، 26)، وأمر أن لا يمس أحدٌ مسحاءه وأنبياءه بسوء. ومع أن الآباء لم يكونوا ممسوحين بدهن المسحة المقدس، إلا أنهم اعتُبروا مسحاء لأن الله اختارهم للقيام بواجبات مقدسة، وخصصهم لخدمات معينة، ودُعي إبراهيم نبياً (تك 20: 7). والنبي هو الذي يكلم الناس بكلمات بنيان تبني حياتهم الإيمانية، وكلمات وعظ تشجع السائرين في برية الحياة، وكلمات تسلية عن معاملات الله مع شعبه عبر التاريخ (1كو 14: 3، 4). وكم نتشجع ونحن نسمع: «أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان لخلاص مستعد أن يُعلَن في الزمان الأخير» (1بط 1: 5).

ثالثاً ـ حقق الرب عهده في يعقوب ويوسف
(آيات 16-23)

في هذه الآيات يروي المرنم الأحداث التي انتهت بهجرة يعقوب من كنعان إلى مصر.

1 – جوع: (آية 16). يقول المرنم إن الله دعا الجوع ليأتي على الأرض، كما قال الله: «دعوتُ بالحر على الأرض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى ما تُنبته الأرض وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل أتعاب اليدين» (حج 1: 11). واستخدم الله المجاعة في كنعان لتحقق مقاصده. ويسمّي الجوع «كسر قوام الخبز» كأن الخبز هو العصا الذي تقوم عليه الحياة، كما تحدث النبي إشعياء عن سند الخبز وسند الماء (إش 3: 1).

2 – بيع وسجن: (آيتا 17، 18). أرسل الله يوسف إلى مصر من قبل مجيء المجاعة ليهيء له ولإخوته طريق الرفعة والشبع، كما قال لهم: «لاستبقاء حياة أرسلني الله أمامكم» (تك 45: 5). فقد سمحت عناية الله أن يُباع يوسف عبداً وأن توضع رجلاه في القيود. وفي هذا يقول المرنم: «في الحديد دخلت نفسه» وهو قول يحتمل معنى أن «الحديد دخل إلى نفسه» فيكون أن يوسف الفتى المدلل صاحب القميص الملوَّن صار في السجن قوياً كالحديد. ولا يسمح الله بحدوث ألم للمؤمن إلا للخير. «قولوا للصديق خير» (إش 3: 10).

3 – رفعة وسلطان: (آيات 19–22). ظل يوسف سجيناً «إلى وقت مجيء كلمته» أي وقت تحقيق وعود الله ليوسف في أحلامه (تك 37: 5–11) فحقَّ له أن يقول: «هذه هي تعزيتي في مذلتي لأن قولك أحياني» (مز 119: 50). وكان وجود يوسف في السجن امتحاناً لإيمانه، جازه بنجاح، بعد أن تعلَّم التواضع والصبر، وهو يقول مع أيوب: «إذا جرَّبني أخرج كالذهب. بخطواته استمسكت رجلي. حفظتُ طريقه ولم أحِد» (أي 23: 10، 11).. وفي الموعد المحدد من عند الله أرسل فرعون ليستدعي يوسف ليكون رئيس وزراء مصر وكبير حكمائها، وصدقت مواعيد الله الذي قال: «لأني أعيِّن ميعاداً» (مز 75: 2).

4 – شبع: (آية 23). وهكذا جاء يعقوب أب الأسباط إلى مصر ضيفاً على فرعون، ولكنه أقام فيها، وأقام نسله من بعده كضيوف، وليسوا كأصحاب أرض.

رابعاً _ حقق الرب عهده في موسى وهارون
(آيات 24-45)

في هذه الآيات يروي المرنم الأحداث التي انتهت بخروج بني إسرائيل من مصر وبلوغهم أرض كنعان.

1 – نجاح: (آية 24). بعد مجيء يعقوب إلى مصر يقول الوحي: «وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم» (خر 1: 7).

2 – اضطهاد: (آية 25). سمح الله أن يتحوّل قلب فرعون ضد بني إسرائيل لكي يخرجوا إلى أرض الموعد التي وعد الله بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فيخرج من الآكل أكل ومن الجافي حلاوة ومن الصعوبة بركة (قض 14: 14). وهو لم يعطنا روح الفشل، بل أعطانا روح القوة (2تي 1: 7).

3 – تكليف: (آيتا 26، 27). جهَّز الله موسى ليقوم بتحرير الشعب المستعبَد من ذل فرعون، فهيأ له فرصة التدريب العلمي في مصر حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم فرصة الرياضة الروحية في مديان مدة أربعين سنة. وهيأ هارون ليكون له معيناً. وفي الثمانين من العمر أمر الله موسى أن يقود شعبه إلى الحرية.

4 - ضربات: (آيات 28–36). أنقذ الله شعبه المضطهَد بضربات أوقعها على فرعون، والتي نقرأ عنها في خروج 7–11. وقد بدأ المرنم بذكر الضربة التاسعة، وهي ضربة الظلام (آية 28)، لأنها الضربة التي هيَّأت فرعون وشعبه ليُخرِجوا بني إسرائيل، كما أنها كانت موجَّهة ضد الإله رع (الشمس) كبير آلهة فرعون. وبسبب ضربة الظلام لم يعص موسى وهارون كلام الرب، كما لم يعصَه فرعون. ويعدِّد المرنم الضربات من تحويل الماء إلى دم وهي الضربة الأولى (آية 29)، والضفادع وهي الضربة الثانية (آية 30)، والذباب وهي الضربة الرابعة، والبعوض وهي الضربة الثالثة (آية 31)، والبَرَد وهي الضربة السابعة (آية 32)، والجراد وهي الضربة الثامنة (34)، وأخيراً موت الأبكار وهي الضربة العاشرة (آية 36). ولم يذكر المرنم الضربتين الخامسة والسادسة (ضربتي موت المواشي والدمامل).

5 – خروج: (آيتا 37، 38). وبعد الضربات العشر أخرج الرب بني إسرائيل من مصر يحملون ذهباً وفضة، وكأنهم جيش منتصر، لا يتعثَّر فيه جندي، وقد وقع الرعب على أعدائهم. «إن أرضت الرب طرق إنسان جعل أعداءه أيضاً يسالمونه» (أم 16: 7).

6 – عناية: (آيتا 39–45).

(أ) **عمود سحاب:** (آية 39). بسط الرب عمود سحاب سَجْفاً (أي ستارة) ليحمي شعبه من الشمس المحرِقة أثناء سفرهم في شبه جزيرة سيناء، وليضيء لهم ليلاً وليرشدهم إن هم سافروا بالليل (خر 13: 21، 22).

(ب) **السلوى والمن:** (آية 40). عندما اشتاقوا إلى اللحم ساق لهم طيور السلوى (السمان)، وكان كل صباح يعطيهم المن (خر 16: 13). وأُطلِق على المن اسم «خبز من السماء» (خر 16: 4)، وهو مثل بزر الكزبرة، وطعمه كطعم قطائف بزيت ومنظره كمنظر المقل (عد 11: 7، 8). وهو لا زال يقول لنا: «لا تهتموا قائلين: ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس؟.. لأن أباكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها» (مت 6: 31، 32).

(ج) **الماء من الصخر:** (آيتا 41، 42). في برية سين أمر الرب موسى أن يضرب الصخرة، فضربها فأخرجت ماءً غزيراً (خر 17: 1-7). وفي برية صين أمر الرب موسى أن يكلم الصخرة فتخرج ماءً، لكنه ضربها بغضب فخرج ماء كثير (عد 20: 1-13). وفي هذا حقق الله وعده لإبراهيم خليله.

(د) **أعطاهم أرض كنعان:** (آيتا 43، 44). ما أن نال الشعب خلاص الرب على يدي موسى وهارون حتى هتفوا بترتيلة الفرح والنجاة، تقودهم مريم النبية بالدف، وجميع النساء وراءها بدفوف ورقص، ومريم تجيبهم: «الفرس وراكبه طرحهما في البحر» (خر 15: 20، 21). وسار بهم الرب في الصحراء القاحلة حتى أوصلهم أرض الميعاد، فتحقق قول موسى: «ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيك، إلى مدن عظيمة جيدة لم تبْنِها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وآبار محفورة لم تحفرها، وكروم وزيتون لم تغرسها، وأكلت وشبعت، فاحترز لئلا تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية» (تث 6: 10-12).

7 - هدف تحقيق العهد: (آية 45). قام الله بهذا كله، وكان يجب أن يحفظ شعبُه فرائضَه ويطيعوا شرائعه، ولكنهم لم يفعلوا كما سنرى في المزمور التالي. لكن كم نشكر الله لأنه «إن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً. لن يقدر أن ينكر نفسه» (2تي 2: 13).